الفصل الثامن عشر
فرويد والتحليل النفسي

لا نكاد نجد نظرية أو مدرسة سيكولوجية حظيت حتى الآن بمثل تلك المتابعة والشهرة اللتين حظي بهما التحليل النفسي. ولم تجد الأفكار والمفاهيم التي جاء بها علماء النفس من الانتشار والتداول مثلما وجدت المفاهيم والأفكار المرتبطة بهذه المدرسة. ولم يقتصر الاهتمام بالتحليل النفسي وانتشار مفاهيمه وأفكاره على الدوائر المختصة في علم النفس، بل تعدياها إلى الدوائر العلمية الأخرى ودوائر الفن والأدب. ووصل تأثير تعاليم التحليل النفسي في عقود خلت عبر تلك الدوائر إلى الأغلبية الساحقة من المثقفين والكثير من المتعلمين في أنحاء عديدة من العالم.

وأصبح علم النفس ـ لحسن طالعه أو لسوئه ـ يعرف من خلال مفاهيم التحليل النفسي وأفكاره.فلو حاولنا تقصي تصور الآخرين(المتعلمين منهم بطبيعة الحال) حول علم النفس وموضوعاته وميادين نشاطه، فإننا على الأرجح سوف نصل إلى ما يثبت صحة قولنا. وواقع الحال هو أن المهمة الأساسية لعلم النفس في تصور العامة من الناس تتمثل في معرفة ما يخفيه الإنسان في أعماقه من مشاعر وأفكار. والاسم الذي نتوقع أن يكون هؤلاء قد قرؤوا له أو سمعوا عنه أكثر من سواه في علم النفس هو اسم مؤسس التحليل النفسي.

فما هو التحليل النفسي؟ وكيف نشأ؟ ماهي قواعده وأصوله.؟ وماهي مادة اهتمامه وطرائقه وأدواته؟ وما موقعه في تاريخ علم النفس؟...

إن الإجابة على هذه الأسئلة تقتضي العودة إلى الجذور العلمية والفلسفية لتعاليم فرويد، مؤسس هذه المدرسة، واستعراض ظروفه الحياتية بغية التعرف على مكوناته الفكرية.

ولد سيغموند فرويد SIGMUND FREUD في ٦ أيار(مايو) ١٨٥٦ في مدينة فرايبورغ في مقاطعة موارافيا من أبوين يهوديين. وكان والده يعقوب يشتغل في تجارة الصوف وبعد وفاة الزوجة الأولى تزوج الوالد من فتاة تصغره بعشرين عاماً تدعى أماليا ناتاتسون. فأنجبت له ثمانية أطفال، وهم على التوالي: سيغموند ويوليوس(الذي مات قبل بلوغه السنة الأولى) وحنّه وروزا وأدولفين ويولا والكسندر. وكان الابن الأكبر «سيغ» الذي بقي بالنسبة للأم، الأفضل والأقرب، يكن لها مشاعر الود والاحترام والمحبة. وينظر إلى والده المتسامح العطوف على أنه الرجل الأقوى والأغنى والأعقل.

ويحكي فرويد في مذكراته التي بدأ بها نشاطه التحليلي في التسعينيات أنه كان منذ طفولته الأولى يشعر بانتمائه إلى الأقلية اليهودية. ومما كان يعزز هذا الشعور المتزج بالخوف هو الصوت المنبعث من جرس الكنيسة والذي كان يدوّي في أرجاء المدينة. فلم يكن أمامه لمقاومة هذه الحالة، كما يقول، إلا أن يلوذ بالنوم ويقضي على مخاوفه بالأحلام.

وفي عام ١٨٥٩ غادرت أسرة فرويد فرايبورغ لتستقر نهائياً في فيينا. وفي الطريق إلى العاصمة النمساوية توقفت الأسرة لعدة أشهر في لايبزيغ. وينقل فرويد مشاهداته خلال هذه الرّحلة، فيتحدث عن القطار الذي رآه للمرة الأولى في حياته عندما كانت الأسرة متوجهة في عربة يجرها حصانان نحو لايبزيغ. وقد تحول القطار في السنوات الممتدة مابين ١٨٨٧ و١٨٩٨ إلى موضوع خوفه الذي تخلص منه بفضل التحليل النفسي وربطه إياه بالخشية من فقدان البيت المقترن بفقدان ثدي الأم. كما يتحدث عن قناديل الغاز التي رآها لأول مرة في مدينة برسلو عبر نوافذ القطار الذي أقلّ الأسرة من لايبزيغ إلى فيينا. وقد أعاده هذا المشهد إلى حكايات مربيته عن الأرواح والعالم الآخر. ومن الوقائع التي توقف عندها فرويد وأبرزها فيما بعد رؤيته لأمه وهي عارية خلال تلك الرحلة، ولما يتجاوز بعد الرابعة من عمره.

وعقب وصول الأسرة إلى فيينا وخلال الأعوام الدراسية التي قضاها «سيغ» في المدينة يسجل إرنست جونز كاتب سيرة فرويد خمس حوادث كان لها وقعها في وعي

الصبي. فقد روت والدة فرويد ـ وتلك الحادثة الأولى ـ أن طفلها تقدم منها معتذراً بعد أن لوث كرسياً بيديه المتسختين ووعدها بتعويضه عندما يكبر ويصبح رجلاً مهماً. والحادثة الثانية نقلها فرويد نفسه. فقد كان «سيغ» في الخامسة من عمره حينما اشترى له والده كتاب «رحلة إلى بلاد فارس». ويربط تعلقه بالمطالعة وجمع الكتب بهذه الحادثة. ويعرض فرويد في الحادثة الثالثة اعتقاد والدته بأن الإنسان مخلوق من التراب. فمنه يأتي وإليه ينتهي. وأنها كانت تعرض أمامه الفتائل السود الصغيرة التي تنتج عن فرك يديها لكي تقنع صبيها بأنها ذرات من التراب الذي جبل الإنسان منه.

وتتضمن الحادثة الرابعة إصرار «سيغ» ذي السنوات السبع على أن يبول في غرفة والديه. وعندما فعل ذلك غضب والده وتحداه أن يكون له أي شأن في المستقبل. وقد أصبحت هذه الحادثة بعد ذلك موضوع حلم بقي يتردد على فرويد في نومه لسنوات طويلة مصحوباً بعناوين مؤلفاته، وكأنه يرد على تحدي أبيه. أما الحادثة الخامسة فتتمثل في أرق الصبي الصغير. وعندما رجع فرويد إلى هذه الحالة ليفسرها وجد أنها تحمل إشارات إلى رغبة آثمة.

ولعل ماكان يسمعه فرويد من أبويه حول نظرة المسيحيين المتعالية تجاه اليهود ومعاملتهم السيئة لهم يعد مصدراً لمشاعر الحقد والتحدي التي تكونت لديه وأضحت محركاً من محركات شخصيته. وتتدرج قصة المسيحي الذي نزع القبعة من على رأس والد فرويد ثم ألقاها على الأرض ضمن هذا السياق. ويعلق فرويد على هذه القصة فيما بعد ويصف أثرها العميق في نفسه، وذهب إلى حد تشبيه موقف أبيه بموقف هاملقار الذي تحدى ابنه هانيبعل الرومان بسببه وقطع على نفسه عهداً بأن ينتقم له. وقد اعترف بأن شخصية القائد هانيبعل أخذت تحتل مكانة هامة في هواماته.

وبعد أن أتم فرويد دراسته الثانوية التحق بكلية الطب التابعة لجامعة فيينا عام ١٨٧٣ تلبية لرغبة والده. أما هو فلم يكن لديه ميل نحو هذا الميدان. وكان يطمح في أن يكون عالماً، مدفوعاً برغبة لا تقاوم في التفوق والشهرة. وربما كانت شروط تكون

هذا الدافع لديه مزيجاً من تقدير عال للذات وشعور جمعي بالاضطهاد الذي عانى منه أفراد الطائفة اليهودية في المجتمعات الأوربية آنذاك. فعقب دخول الجامعة تعزز شعوره بتمايزه من الآخرين وانتمائه الديني. وقد عبر عن حاله هذا بقوله: إنه(أي هذا الواقع) أهلّني لأن أكون في المعارضة.

إن هذه الإلماعات السريعة عن ظروف الدائرة الأولى التي نشأ فيها فرويد ليست كافية بالتأكيد لتقديم المنابع والمصادر التي نهل منها وأخذ عنها ما ساعده في صياغة نظريته. وهي، وحدها، تبدو قاصرة عن تحديد معالم هذه الحالة، بل وجميع الحالات الأخرى المشابهة، ولهذا فمن مستلزمات الكفاية البحثية أن نشير - زيادة على ما سبق - إلى الدوائر الأوسع وتفاعلها بعضها مع بعض، وعلاقتها بالظروف الخاصة لفرويد. ونعني بذلك الأجواء العلمية والفكرية التي كانت سائدة في تلك الفترة التي تمتد من أواسط القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين.

لقد نشأ فرويد في مرحلة قطعت الفلسفة والعلوم الطبيعية والاجتماعية إبانها أشواطاً بعيدة إلى الأمام. ولا أدل على ذلك من بروز أسماء كثيرة في دنيا الفلسفة مثل كانت وهيغل وشوبنهاور وهربارت وغيرهم. ومن ثم ظهور الأفكار التطورية، إذ صدر «أصل الأنواع» بعد ولادة فرويد بثلاثة أعوام. وفيه بسط داروين نظريته حول نشوء الأحياء وارتقائها، معتبراً الإنسان درجة عليا في سلم هذه العملية الكبرى ويخضع لقوانينها العامة، وبهذا تجاوز داروين التصورات السابقة التي تضع الإنسان في مملكة خاصة ومتميزة تماماً من عالم الحيوان.

وبعد عام من صدور كتاب داروين نشر فخنر «عناصر السيكوفيزياء» الذي كشف عن قدرة العقل البشري على دراسة ذاته دراسة علمية وقياسه قياساً كمياً، مخالفاً، بذلك، ماكان رائجاً حينذاك من أن موضوعاً كهذا لا يمكن أن يكون مادة للقياس.

ومن جهة أخرى، عرف النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهور نظريات في الكيمياء، وولادة فروع جديدة للفيزياء وعلوم الأحياء. ففي مطلعه انتهى هيلمهولتز إلى وضع قانون «حفظ الطاقة وتحولها» الذي أصبح أساساً للترموديناميك.

وبعد سنوات بدأ غريغور ماندیل (١٨٢٢-١٨٨٤م) بإجراء تجاربه على بعض الفصائل النباتية (البازلاء) لتحديد صفاتها الموروثة، ومعرفة قوانين انتقال تلك الصفات من جيل إلى جيل. وكان لها الفضل في إرساء دعائم علم الوراثة.

وإذا كان لهذه الأعمال أثر غير مباشر في منظومة فرويد الفكرية، فإن ثمة أعمالاً أخرى تركت آثاراً مباشرةً وملموسةً عبر مسيرته الدراسية والعلمية. فالهيئة التدريسية في كلية الطب التي درس فيها فرويد كانت تضم عدداً من الأساتذة الأكفاء. ومن بينهم إرنست بروك، صاحب مدرسة في فيزيوكيمياء العمليات الفيزيولوجية عند الإنسان والحيوان.

وقد نشر بروك كتاباً بعنوان «محاضرات في الفيزيولوجيا» عام ١٨٧٤، أي بعد عام واحد من دخول فرويد إلى الكلية، ضمنه فكرته عن الكائن الحي باعتباره نظاماً من الديناميات، تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها الظواهر الكيميائية والبيولوجية.

لقد أعجب فرويد بأستاذه، ولفتت نظريته الجديدة انتباهه، وحفزته على التفكير في إمكانية تطبيقها على النفس الإنسانية. وربما كان هذا أحد العوامل التي قادته لتأسيس علم النفس الديناميي الذي يدرس تحولات الطاقة وانتقالها من حال إلى آخر داخل الشخصية.

وبعد أن تخرج فرويد من كلية الطب عام ١٨٨١ لم يمارس مهنة الطب، وآثر مواصلة البحث في مخبر بروك حتى عام ١٨٨٢. وهو العام الذي تعرف في الشهر السادس منه على مارتا برنايز. وقد حملته علاقته بها على التفكير الجدي بتأمين مورد مالي. فاضطر إلى التراجع عن موقفه، وبدأ بممارسة الطب عملاً بتوجيهات بروك وتشجيعاته، فاشتغل كطبيب متمرن في قسم الجراحة في مستشفى فيينا لمدة شهرين فقط. ثم انتقل إلى قسم الصحة العامة الذي كان يترأسه الأستاذ غ. نوتناغل. وبقي فيه ستة أشهر تحول بعدها إلى قسم الأمراض العقلية الذي كان يشرف عليه الأستاذ ت.مينيرت(١٨٣٣-١٨٩٢م) الاختصاصي في تشريح وفيزيولوجية الدماغ، وصاحب نظرية أولوية «الأنا» باعتباره وعياً جسمياً متميزاً عن الوعي الذي طابقه الفلاسفة وعلماء النفس مع تصورات الذات عن العالم الخارجي. وربما كان بعض المؤرخين على حق حين قابلوا

مفهوم اللا وعي الفرويدي ومفهوم أولوية الأنا عند مينيرت. وأخيراً انتقل فرويد إلى قسم الأمراض الجلدية ليوجه اهتمامه أثناء عمله فيه إلى الأمراض الزهرية.

لقد كانت دراسات فرويد التي نشرها حتى عام ١٨٨٥ تتركز حول: «مشكلات التشريح المقارن وتحديد وظائف الدماغ»، و«الحبسة APHASIE» و«الاضطرابات البصرية». وتميزت جميعها، حسب آراء المختصين وقتذاك، بأصالتها ودقة تقنياتها، الشيء الذي عكس سعة اطلاع صاحبها ومرونة تفكيره، علاوة على إصراره الشديد وطموحه القوي.

وفي تلك الأثناء أدخل فرويد الشاب مصطلح «العمه AGHOSIE» ليعبر به عن حالة من حالات الاضطراب الحسي البصري. وهي الحالة التي يبدي المصاب فيها عجزاً عن تمييز أشكال الموضوعات الخارجية. واهتم فرويد أثناء عمله في المستشفى أيضاً بخصائص الكوكائين، وبإمكانية الإفادة منه في العمليات الجراحية. ولكنه لم يواصل بحثه هذا حتى النهاية. وحينما سمع بنبأ توصل أحد الباحثين إلى الكشف عما كان يسعى إليه بعث إلى خطيبته مارتا برسالة في ١٨٨٤/٤/٢١ أنحى فيها باللائمة عليها وحمل بعدها عنه مسؤولية إخفاقه العلمي.

وفي خريف عام ١٨٨٥ سافر فرويد إلى باريز في بعثة علمية. وهناك قضى عاماً كاملاً اطلع خلاله على أفكار شاركو مباشرة. ويصف لنا جونز حالة الضياع التي كان فرويد يكابدها في الأيام الأولى من وجوده في مستشفى سالبتريير بسبب العدد الكبير والنوعية الممتازة للطلبة الذين قدموا من عدد من بلدان العالم للاستماع إلى الطبيب الفرنسي والتعرف على طريقته في العلاج.

وللتغلب على هذه الحالة البائسة حاول فرويد التقرب من شاركو، فعرض عليه القطع المجهرية المرصعة بالفضة والتي ابتكرها في فيينا وأحضرها معه إلى باريز. ولكن شاركو لم يعر تلك المعروضات الاهتمام الذي كان ينشده فرويد. فما كان من فرويد إلا أن اقترح عليه ترجمة محاضراته إلى اللغة الألمانية. فقبل شاركو هذا العرض. وكان لفرويد ما أراد.

إن رغبة فرويد في التقرب من شاركو تجسد إعجابه الشديد بشخصيته وتأثره القوي بأفكاره. وهذا ما أبرزه في إحدى رسائله المؤرخة في ١٨٨٥/١١/٢٤، حيث قال: «إن شاركو من أعظم الأطباء. وهو يقضي وبكل بساطة على كل أهدافي وآرائي. إنني أخرج من محاضراته أحياناً كما لو كنت خارجاً من كنيسة نوتردام مع فكرة جديدة تماماً عن الكمال... هل ستعطي البذرة ثمرة؟ لست أدري... وكل ما أعرفه هو أنه مامن إنسان أثر علي بهذه الطريقة».

وللتذكير فإن شاركو كان يهتم بالأمراض الهستيرية وبمعالجتها. وكان قادراً على إحداث أعراض الهستيريا بواسطة التنويم المغناطيسي. مثلما كان قادراً على إحداثها والقضاء عليها عن طريق الكلام بعيداً عن ممارسة أي ضرب من ضروب السحر أو الشعوذة. وربما تكون محاضراته وعروضه قد أوحت لفرويد بوجود منطقة أو ساحة نفسية معزولة تماماً عن الوعي.

عاد فرويد إلى فيينا عام ١٨٨٦ وهو مزود بالكثير من الانطباعات والأفكار المبعثرة وغير الواضحة، زيادة على طريقة التنويم المغناطيسي التي تستخدم في علاج الأمراض الهستيرية. وفي أيلول(سبتمبر) من العام نفسه تزوج من مارتا. واستمر في عمله كطبيب للأمراض العصبية، معتمداً، هذه المرة، على التنويم المغناطيسي والطريقة الكهربائية. إلا أنه سرعان ما تبين له ضعف فعالية التنويم المغناطيسي، وصعوبة تطبيقه على جميع المرضى. فقد وجد أن هناك من بين المرضى من لا يخضع لسيطرة المعالج وإيحاءاته. يضاف إلى هذا أن المعالجة بهذه الطريقة لم تثبت نجاعتها حتى في بعض الحالات التي تتوفر فيها إمكانية تنويم المريض. ولحل هذه المشكلة قرر فرويد الاستعانة بأصحاب الخبرة والعودة ثانية إلى فرنسا. وفي عام ١٨٨٩ سافر إلى نانسي للقاء برنهايم وليبو والتعرف على نتائج نشاط مدرستهما في التنويم المغناطيسي. وهناك علم أن هذه الطريقة تحقق نجاحاً لدى استعمالها مع المرضى الذين ينتمون إلى الطبقة الفقيرة. بينما لا تحقق هذا القدر من النجاح مع المرضى الأغنياء بسبب صعوبة تنويمهم.

وهكذا خاب أمل فرويد، ورجع إلى فيينا وهو يفكر في كيفية مواجهة مستقبله العلمي والعملي. على أن حيرته لم تدم طويلاً، إذ تعرف على جوزيف برويـر J.BREUER(١٨٤١ ـ ١٩٢٥م)، أحد أطباء فيينا وصديق الفيلسوف النمساوي ماخ. وبدأ نشاطاً مشتركاً معه.

وكان برويـر قد استهل عمله في ميدان الفيزيولوجيا، ثم تحول إلى الطب. وتسنى له الإشراف على معالجة مرضى الهستيريا بطريقة قريبة من التنويم المغناطيسي. وفي الوقت الذي اتفق فيه مع فرويد على العمل معاً، كان برويـر يحاول إدخال بعض التعديلات التقنية على طريقته لمعالجة فتاة في الحادية والعشرين ربيعاً تعاني من أعراض هستيرية تدعى برثا بابنهايم. وكانت هذه الفتاة(التي عرفت في أدبيات التحليل النفسي باسم آنا) تعاني من تصلبات جسدية وخدر في طرفيها الأيمنين واضطرابات بصرية وصعوبة في حفظ الرأس بصورة مستقيمة وحالات غيبوبة. وقد ظهرت هذه الأعراض لديها بصورة تدريجية بعد مرض أبيها الذي كانت تكن له كل المحبة، وتحيطه بعناية ورعاية فائقتين. وحينما شرع برويـر بمعالجتها طلبت منه أن يفسح لها المجال كي تبث له همومها وتفضي عما في داخلها أثناء نومها الاصطناعي. فقبل برويـر اقتراحها. وحتى نهاية الجلسة العلاجية كانت آنا قد استطاعت أن تستعيد الوقائع والأحداث المتصلة بماضيها العاطفي، والتي كانت تظن أنها أصبحت في طي النسيان. فأعربت عن ارتياحها وامتنانها.

وبعد فترة قصيرة لاحظ برويـر أن صحة المريضة قد تحسنت بدرجة مقبولة، مما جعله يعتقد أن نجاعة الطريقة الجديدة تكمن في كونها تساعد المريض في استحضار الأحداث التي كانت سبباً في ظهور الأعراض المرضية، وتمكنه من أن يعيشها بانفعالاته. ومذ ذاك صار التحدث أثناء التنويم الطريقة المفضلة عند برويـر وفرويد. ولقد حقق الرجلان بعض النجاح بفضل هذه الطريقة التي أطلق عليها برويـر الطريقة التطهيرية(التطهير CATHARSIS كلمة يونانية استخدمها أرسطو ليعني بها «تطهير أو تنقية» الروح من الانفعالات العنيفة التي تنشأ عن إدراك التراجيديا)، ونشرا كتاباً مشتركاً بعنوان «دراسات حول الهستيريا» عام ١٨٩٥. ويعد هذا العمل

الثاني من نوعه بالنسبة لفرويد. حيث أنه كان قد كتب مجموعة من المقالات حول ايثولوجيا الهستيريا. ونشرها في المجلة الطبية ا لفييناوية خلال عام ١٨٩١.

ولم يمضِ عامان على تعاون بروير وفرويد حتى قرر الأخير التخلي عن التنويم المغناطيسي بسبب استحالة تنويم جميع المرضى، وصعوبة الوصول بالمريض المنوّم إلى المستوى الذي يجعله يستعيد مشاعره العميقة.

وبعد ذلك بقليل، وبالضبط في عام ١٨٩٤ نشب خلاف بين الشريكين، وتبين، فيما بعد، أن سببه راجع إلى الاضطراب الذي تشهده علاقة الطبيب بالمريض في مرحلة من مراحل العلاج وموقف كل منهما إزاء هذه الواقعة. ففرويد يرى أن حب المريضة للطبيب وتعلقها به يعود إلى الأسباب الجنسية التي أدت إلى ظهور الأعراض المرضية. ويعتقد أن المريضة في موقفها هذا إنما تتخذ من الطبيب موضوعاً بديلاً عن موضوع حبها الأول. فهي تنقل حبّها من شخص(غالباً ما يكون أحد المحارم) إلى الطبيب. وقد دعا فرويد هذه العملية بالنقل أو التحويل TRANSFERT واعتبرها لحظة هامة ومفيدة في العلاج النفسي. بينما عارض بروير هذا التفسير بشدة، واعتبر موقف مريضته هذا خطراً لا يجوز الاستخفاف بعواقبه السيئة على صعيد النشاط العلاجي وأخلاق المهنة.

ولما لم يتمكن أي من الطرفين من إقناع الطرف الآخر بصواب موقفه، حدث الانشقاق وطويت صفحة التعاون بين الصديقين. واستمر فرويد في عمله مستخدماً طريقة نانسي الإيحائية المتمثلة في استلقاء المريض على السرير واسترخائه، ثم قيام الطبيب بوضع يده على جبين المريض وحثه على التذكر... وبقي الحال هكذا إلى أن أبدت إحدى مريضاته(وهي أيمس فون.ن. التي عرض حالتها في «دراسات حول الهستيريا) رغبتها في أن لا يقاطعها بأسئلته ويدعها تسترسل في استرجاع ذكرياتها الدفينة بالشكل الذي تريده دون تدخل من جانبه. وحالما تحقق لها ما طلبته لاحظ فرويد أنها تسرد أحداثاً وتعبر عن انفعالاتها ومشاعرها أثناء وقوع تلك الحوادث بصورة لم تكن متيسرة له أثناء استخدامه لتقنيات الإيحاء. وهذا ما شجعه على

الاقتناع شيئاً فشيئاً بجدوى الأسلوب الجديد وبقيمته في تخليص المريض من انفعالاته السلبية، وأخيراً بضرورة الاعتماد عليه. وبذا يكون فرويد قد خطا خطوة هامة نحو طريقة التداعي الحرّ FREE ASSOCIATION.

ووفقاً لهذه الطريقة أصبح فرويد يطالب مرضاه بسرد كل ما يجول في نفوسهم ويخطر ببالهم دون تردد مهما بدا لهم سخيفاً أو غير ذي بال. وآية ذلك أنه كان يعتقد بأن إجراء كهذا من شأنه أن يخفف من الرقابة على الصور أو الأفكار التي ترد إلى وعي المريض.

ومما استدعى انتباه فرويد أثناء تطبيقه لطريقة التداعي الحر هو أن معظم مريضاته كن يرجعن إلى مراحل حياتهن الأولى ويسردن وقائع تعرضن فيها إلى إغراء الكبار أو مهاجمتهم لهن. ولئن وقع فرويد تحت تأثير شاركو وبرويير في نشاطه المبكر وأرجع الأمراض الهستيرية إلى صدمات عاطفية يتلقاها المرء في طفولته، فإن المعطيات الجديدة جعلته يقتنع بأن الإغراء الجنسي أو الهجوم الذي تتعرّض له البنت من قبل أبيها أو أخيها الكبير أو أحد أقاربها هو الحدث الذي يولد الهستيريا. واعتقد أن في هذا الربط يكمن الحل السليم والنهائي للمرض. وراح يتأهب للإعلان عن اكتشافه في صورة نظرية حول الهستيريا. غير أن التحليل الذاتي الذي مارسه فرويد مع نفسه أظهر أن الوقائع التي يرويها المرضى أثناء جلسات العلاج هي أقرب إلى الخيالات والهوامات منها إلى الحقائق. ولا أساس لها في الواقع، إلا أساس رغبة المريض ذاتها بذلك. وبالاستناد إلى هذه الاستنتاجات يمكن القول بأن إيجاد «قنوات» لتسرب الأفكار السلبية المكبوتة واستدعائها بغية تطهير نفس المريض وتنقيتها هو تدبير يقوم على تصور أن الأفكار والمشاعر التي ترافق عدم إشباع رغبة ما أو تنجم عنه لا تزول، وإنما تزاح أو تُكبت في اللاوعي ويستمر تأثيرها على المرء مما ينجم عنه ظهور اضطرابات في سلوكه لا يعرف عن سببها أو مصدرها أي شيء.

لقد أصبح هذا التصور جزءاً هاماً من نظرية التحليل النفسي. وعلى أساسه طرح فرويد مفهوم اللاوعي الذي يعد حجر الزاوية في بناء هذه النظرية. وهو ما

يمكن اعتباره تحولاً نوعياً ومنعطفاً حاسماً في المسار العلمي لفرويد. ذلك أن المفاهيم والمصطلحات التي كان يستخدمها في الأعوام الأولى لوصف الأمراض العصابية لم تخرج عن الإطار العلمي المألوف. وقد يكون مؤلفه «مشروع سيكولوجيا علمية»(*) الذي خصصه لعرض آرائه في النشاط العصبي المركزي وآلياته بوصفها أساساً لتشكل الوظائف النفسية، آخر محاولة تنحاز إلى الجانب الطبيعي في تفسير مظاهر السلوك الإنساني. أما الجانب أو الخيار الثاني الذي كان مطروحاً على علم النفس فيتمثل في فصل الوعي عن كل ماهو مادي وطبيعي. ومعنى ذلك أن دراسة الوعي يجب أن تتم بمعزل عن عضوية الإنسان، حامل هذا الوعي.

وما حدث بالفعل هو أن فرويد تخلى عن خياره الأول ليأخذ بالخيار الثاني، ويصبح أحد أبرز ممثليه في علم النفس. ومن المنطقي أن يطرح سؤال عن الأسباب التي دفعت فرويد إلى القيام بهذه الخطوة. وعند الإجابة على هذا السؤال يلتفت البعض إلى العوامل الذاتية ليجد أن تلك الأسباب تكمن في معاناة فرويد الشديدة، وخاصة بعد انفصاله عن بروير وموت أبيه وإصابته بالاكتئاب DEPRESSION والحالات العصبية المتوترة التي دفعته إلى القيام بتحليل ذاتي يومي لأحلامه وذكرياته طمعاً في استعادة التوازن والاستقرار. وليس من المستبعد أن يملك هذا التفسير نصيباً من الحقيقة. فالظروف الحياتية للإنسان تؤثر على نحو ما في علاقاته واتجاهاته وميوله. ولكنها أياً كانت الحالة، ليست إلا جزءاً من عوامل كثيرة ومتنوعة ومتداخلة. وأن أثرها لا يكون واضحاً إلا عبر تفاعلها مع تلك العوامل. ولهذا فإن الاكتفاء بها في تفسير مجمل نشاطات الفرد وتقييمها يبعد المرء عن الموضوعية والتاريخية.

لقد أشرنا إلى التقدم الذي حققته الميادين العلمية والفكرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كما أشرنا إلى اتصالات فرويد وعلاقاته المباشرة وغير المباشرة بغيره من الأطباء ورجال الفكر. وكان لكل ذلك أثره الكبير في بلورة خطه الفكري وتصميمه على نشره والدفاع عنه.

وتبدو ظروفه الذاتية التي يتحدث عنها مؤرخوه جزءاً بسيطاً من النسيج المعقد لشخصيته الذي ألّفت قراءته الفلسفية ومطالعاته الأدبية والفنية ومواكبته للتطورات العلمية جزأه الأكبر والأهم بما اتخذه من أشكال وما اصطبغ به من ألوان. ولعلنا نجد في أعمال فرويد ما يعكس اهتماماته المتنوعة. فقد كتب في التشريح والفيزيولوجيا، كما كتب في الأدب علاوة على ما كتبه في التحليل النفسي. وعلى الرغم من اشتغاله بالطب والتشريح والأعصاب حوالي خمسة عشر عاماً، فإنه كان ينزع إلى المعرفة الفلسفية بفعل اهتماماته المتشعبة. وقد عبر عن هذه النزعة في رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه عام ١٨٩٦. ومما جاء فيها قوله: «لم أكن كشاب أتمنى شيئاً أكثر من المعرفة الفلسفية. وأنا الآن في طريقي إلى تحقيق هذه الأمنية بالانتقال من الطب إلى علم النفس» (هال، ١٩٧٠ ،٢٠).

أراد فرويد منذ صباه أن يدرس الطبيعة والحياة عملاً بالدعوة التي وجهها الشاعر والمفكر الألماني. إ.غوته باسم الطبيعة الأم إلى جميع أبنائها لكي يكشفوا عن أسرارها ويفهموا ألغازها. واقتحم ميدان الطب والعلم الطبيعي أملاً في أن يصبح عالم طبيعة. ولكن طموحه في التعرف على كُنْه الحياة اصطدم بمحدودية فعالية الأجهزة والأدوات التي كان أقصى ما تمده به هو البنية الدقيقة للعضوية. ولم يكن بمقدورها أن تضع أمامه حقائق ذات صلة بتلك العضوية، ونعني إدراك أبعاد الوقائع النفسية. ومع إصراره على تحقيق طموحه كان عليه أن يتخلى عن تلك الأجهزة والأدوات، ويلجأ إلى استخدام أجهزة وأدوات أخرى يفترض(إن لم نقل يسلم بـ) كفاءتها وتناسبها مع خصوصية الميدان الجديد وتميز موضوعاته.

ولم يخف فرويد إخفاقه في المرحلة الأولى من عمله العلمي. فهاهو يعود إليها عام ١٩٢٧ ويذكر معاناته وصراعه الداخلي وما آلت إليه أوضاعه وقتذاك: «لقدبدا لي أن أكثر الوسائل امتلاءً بالأمل في إنجاز هذه الغاية أن أدفع بنفسي إلى كلية الطب. بيد أنني في ذلك الحين زاولت ـ بالفشل ـ علم الحيوان والكيمياء، إلى أن استقر بي المطاف أخيراً ـ بفضل «بروك» الذي حمل أكثر من أي إنسان آخر في حياتي كلها أكبر العبء ـ عند الفيزيولوجيا. إلا أنها كانت في تلك الأيام محصورة أكبر

انحصار في تشريح الأنسجة»(هال، ١٩٧٠، ٢٠). ويكتشف فرويد عام ١٨٩٠ أن مكانه الأنسب ليس في الفيزيولوجيا، وإنما في علم النفس. كتب إلى أحد أصدقائه يقول: «لقد كان علم النفس هو الهدف الذي يلوح لي من بعيد»(هال، ١٩٧٠، ٢١).
وما إن مضت سنوات قليلة جداًحتى بدأ، بالفعل، مسيرته السيكولوجية التي استمرت أكثر من أربعين عاماً.

دأب فرويد على التسلل إلى الطبقات العميقة من النفس الإنسانية مقتفياً المسالك والشعاب التي تتضح عبرها ذكريات مرضاه حينما كان يطلق العنان لتداعياتهم في جلساته الطويلة والمتكررة معهم. وأيقن بفضل معطيات العمل التحليلي أن ثمة قوى نفسية باطنية وخفية تعمل بشكل دينامي ودائم مسببة متاعب للشخص، تتجسد في اضطرابات عضوية وسلوكية. ولقد دفعته ملاحظاته العيادية ومطالعاته ومناقشاته مع ذوي الخبرة والاختصاص إلى الاعتقاد بأن هذه القوى غالباً ما تكون لا واعية.

وجاءت أعماله اللاحقة لتعزز اعتقاده بأهمية القوى اللاواعية وإبراز دور اللاوعي في حياة الفرد. ومنذ السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أصبح اللاوعي ومكنوناته الموضوع المركزي للتحليل النفسي. وإليه نقل فرويد كل اهتماماته مجسداً التأملات الفلسفية عنه في واقع ذي أبعاد وحدود ومقومات، متجاوزاً وجهات النظر الرامية إلى البحث عن أسباب الأمراض النفسية في المحيط الذي يحيا فيه المريض ليدعم الرأي القائل بضرورة الكشف عن تلك الأسباب داخل الذات، وبالتحديد في اللاوعي. وقد عبر عن هذا الموقف بوضوح حين قال: «إن جميع العمليات النفسية في جوهرها لاواعية... وإن العمليات الواعية تقتصر على بعض مظاهر نشاطنا النفسي فقط»(فرويد، ١٩٢٣، ٢٨). وأكده في مكان آخر بقوله: «إن التحليل النفسي لا يمكنه أن يقبل الرأي الذي يذهب إلى أن الشعور هو أساس الحياة النفسية، وإنما هو مضطر إلى اعتبار الشعور كخاصية واحدة للحياة النفسية. وقد توجد هذه الخاصية مع الخصائص الأخرى للحياة النفسية أو قد لا توجد»(فرويد، ١٩٨٥، ٢٥).

إن وجهة نظر فرويد هذه تخالف كل ماعرفه علم النفس حتى تاريخ الإفصاح عنها، بل وبعده (باستثناء أتباع فرويد طبعاً!).. فالنفس بموجبها ـ تتألف من ساحتين: الوعي واللاوعي.

وفي حين يغطي الوعي مساحة صغيرة من النفس، يحتل اللاوعي المساحة الأكبر والأهم. وقد شبه فرويد النفس الإنسانية بجبل جليدي، مايخفى منه أضخم وأعظم مماهو ظاهر بكثير. واللاوعي، فوق ذلك كله، هو، برأي فرويد، جوهر النفس والأصل الذي يتكون منه الوعي تدريجياً مع تقدم الطفل في السن..

وتكمن أهمية اللاوعي، بالنسبة لفرويد، في أنه مستودع الطاقة والانفعالات والأفكار التي يكبتها الإنسان منذ طفولته دون أن يعرف عن مكبوتاته أي شيء ليس بسبب وهن ذاكرته أو ضعف قدرته على التركيز والاستعادة، وإنما بسبب وجود قوى معينة تقاومها وتمنعها من الظهور في الوعي. فاللاوعي مغلق تماماً على الوعي رغم ما يتسم به من دينامية، يعتبرها فرويد مسؤولة عن ظهور تلك الانفعالات والأفكار من حين لآخر على شكل اضطرابات في حركات المريض وإدراكاته وتذكره. وهنا يطرح فرويد مفهومين أساسيين وضروريين لفهم آلية نشوء الأعراض المرضية والتخلص منها، وهما «الكبت» و«المقاومة». فالكبت يدل على حالة الانفعالات والأفكار في اللاوعي. والمقاومة هي القوة التي تحول دون انتقال تلك الانفعالات والأفكار إلى الوعي. ويتبوأ الكبت مكانة هامة في نظرية فرويد. وفي هذا يقول:«إننا نستمد مفهومنا عن اللاوعي من نظرية الكبت، ونعتبر المكبوت نموذجاً للاوعي»(فرويد، ١٩٨٥، ٢٨).

ويتضمن اللاوعي الفرويدي معنيين: الأول وصفي، والثاني دينامي. فالمكبوت، بالمعنى الأول، يستطيع أن يصبح شعورياً. ولكنه، بالمعنى الديناميي، يعجز عن ذلك لوحده. وقد أطلق فرويد على المستوى الأول مفهوم «ماقبل الوعي» وأبقى على مفهوم «اللاوعي» ليعبر به عن المستوى الثاني.

ولقد كان على فرويد أن يصمد أمام النقد العنيف الذي ووجهت به نظريته عن اللاوعي والدور الكبير الذي أسنده إليه. وتضمن هذا النقد إحدى الإشكاليات التي

وقف أمامها الفلاسفة الذين تطرقوا إلى الجانب اللاوعي من الحياة النفسية دون أن يجدوا حلاً منطقياً، مقنعاً لها. وتتعلق هذه الإشكالية بما إذا كان بوسع المرء أن يتحدث عن أمر ما ليس بمتناول إدراكه. فما دام اللاوعي مستعصياً على الوعي، فهل يمكن تحديد أبعاده ومعرفة محتواه؟ أو حتى التكهن أصلاً بوجود تصورات لا واعية؟

وإذا وجد معظم الفلاسفة قبل فرويد أن الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب تشكل تناقضاً صارخاً وفضل هؤلاء أن يسلكوا مسلكاً آمناً بالإجابة عليه بالنفي مع الاكتفاء بالإشارة إلى وجود بعض الوقائع النفسية التي لا يعيها الإنسان بصورة جيدة، فإن فرويد حزم أمره وأعلن عن وجود اللاوعي وإمكانية التعرف عليه بعد نقل محتواه أو بعضه إلى الوعي بطرائق وتقنيات جديدة ومختلفة عن تلك التي ألفها الباحث في علم النفس. وقد اهتدى إليها عبر الممارسة العيادية وعمل على تهذيبها وتعديلها لتتناسب مع مهماتها الخاصة. ويعزو سبب نفي الآخرين لوجود منطقة اللاوعي إلى جهلهم بتلك الطرائق والتقنيات. وبهذا المعنى يقول: «يرى معظم الناس الذين تعلموا شيئاً من الفلسفة أن فكرة وجود أي شيء نفسي دون أن يكون شعورياً أيضاً إنما هي فكرة لا يمكن تصورها على الإطلاق، بل إنها تبدو لهم أمراً محالاً وغير مقبول أصلاً من الناحية المنطقية، وإني أعتقد أن ذلك يرجع فقط إلى أنهم لم يدرسوا مطلقاً الظواهر المناسبة الخاصة بالتنويم المغناطيسي والأحلام، وهي ظواهر تستوجب هذه النتيجة بصرف النظر عن دلالتها المرضية. وهكذا نرى أن علم النفس الذي يقتصر على دراسة الشعور لا يستطيع حل مشكلتي الأحلام والتنويم المغناطيسي» (فرويد، ١٩٨٥، ٢٥، ٢٦).

ونستخلص مما تقدم أن مؤسس التحليل النفسي ركز جهوده على نقل المكبوتات من اللاوعي إلى الوعي، فمن شأن هذه العملية تخليص الفرد من معاناته المرضية أو التخفيف منها إلى الحد الذي يصبح معه قادراً على استئناف حياته ونشاطه بصورة عادية. ويتطلب القيام بذلك وجود طرف آخر هو الطبيب. لأن ماهو مكبوت لا يستطيع بذاته ومن غير الكثير من العناء والتعب أن ينتقل إلى الوعي. وبالإمكان تصور مدى صعوبة المهمة التي يضطلع بها الطبيب. فعليه أن يمكن المريض عبر

العديدمن الجلسات من استعادة الوقائع والأحداث الدفينة في اللاوعي بجزئياتها وتفصيلاتها. وهو، حين يقوم بذلك، إنما يعمل على إضعاف المقاومة وإزالة حواجز الرقابة المفروضة على المكبوتات ليسهل تسربها إلى سطح الوعي. يقول فرويد: «تنطوي الحياة على قسط وفير من الرمزية...ويوم أخذت على عاتقي أن أخرج إلى النور ما يخبئه الناس دون أن ألجأ إلى وسيلة التنويم المغناطيسي القاهرة، ومستعيناً فقط بما يقولونه وما يبدر عنهم، كنت أتصور هذه المهمة أعسر مما هي عليه في الواقع. فمن له عينان ليرى وأذنان ليسمع يتبين أن بني الإنسان لا يستطيعون أن يكتموا سراً. فمن تصمت شفتاه يثرثر بأطراف أنامله. فهو يشي ما بنفسه بكل مسام جسمه. لهذا السبب نرى أن مهمة إخراج أخفى خفايا النفس إلى نور الشعور مهمة قابلة تماماً للتحقيق»(فرويد، ١٩٨١، ٩١).

ولما كانت المقاومة خاصية اللاوعي، فإنها لا تكف عن أداء دورها في حالتي اليقظة والنوم دون أن يدركها الفرد أو يعترف بوجودها حتى ولو أُعلم بذلك. ومع هذا فإن الأفكار والمشاعر المكبوتة تتخذ صوراً ومظاهر مقنّعة وتناور الرقابة الصارمة وتفلت منها وتتسلل إلى الوعي كما هو الحال في زلات القلم واللسان والنسيان والنكتة والأحلام. وينظر فرويد إلى الحالة الأخيرة، أي الأحلام، باعتبارها دربا»... من الدروب التي يمكن أن تسلكها إلى الوعي تلك المادة النفسية التي جرى كبتها لما يثيره مضمونها من نفور، والتي حجز عليها خارج الوعي»(فرويد، ١٩٨١، ١٩ ، ٢٠).

ومن هذا المنظور اهتم فرويد بالحلم وتحليل مضمونه ليصل إلى تلك الأفكار والمشاعر التي يرتبط بها ويعبر عنها. فالصور التي يراها الإنسان في الحلم ليست سوى إشارات أو رموز لوقائع وأحداث مكبوتة، أفلحت في مراوغة الرقابة وتمكنت من الإفلات منها. وعلى من يمارس التحليل أن يتقن ترجمة هذه الإشارات وفك تلك الرموز ليقف على فكرة الحلم المكبوتة. وقد أشار فرويد إلى ذلك بقوله: «إن أفكار الحلم والمحتوى الظاهر للحلم تبدو لنا كتصورين مختلفين لمحتوى واحد. فمحتوى الحلم يبدو لنا كتدوين لأفكار الحلم بنوع آخر من التعبير. وعلينا أن نتعلم إشارات وقوانين العمل بمقارنة الأصل مع الترجمة لفهم أفكار الحلم بصورة مباشرة عندما

تظهر لنا. إن محتوى الحلم يعرض لنا على شكل هيروغليفي. فإشاراته يجب أن تترجم واحدة واحدة إلى لغة أفكار الحلم، إننا نخطئ بالتأكيد إذا أردنا قراءة هذه الإشارات كصور وليس حسب معناها الرمزي»(سمير نوف، ١٩٨٢، ١٧).

وهكذا أقبل فرويد على نشاطه التحليلي وهو مسلح بطريقتي التداعي الحر وتفسير الأحلام المتكاملتين ليخرج ماخفي في لا وعي مرضاه وفي لا وعيه شخصياً إلى نور الوعي، ويربط بين دقائق وجزئيات تقاريرهم عن ماضيهم البعيد وأحلامهم، كما يربط بين دقائق وجزئيات ذكرياته وأحلامه للوقوف على الأسباب الفعلية للحالات المرضية. فماهي طبيعة المكبوتات؟ وماهي مادتها ـ كما وصفها فرويد ـ ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضي الانتقال إلى الجانب الآخر من نظرية فرويد. ونعني الجانب الدافعي للسلوك البشري. فقد وجد فرويد أن أفعال الإنسان وتصرفاته منذ الولادة تنشأ وتتطور في سياق البحث عن أساليب وموضوعات إشباع دوافعه الغريزية. فالكائن البشري يولد بعدد من الغرائز. وعلى إشباعها وكيفية هذا الإشباع يتوقف بقاؤه واستمراره. وأول مايجب أن نعرفه هو أن هذا الإشباع يتم عبر تبادل العضوية الأشياء والعناصر الحيوية مع العالم الخارجي. فبفضل الآليات المعقدة لعمل العضوية تتحول الأشياء والعناصر التي تستمدها من المحيط الخارجي إلى أشكال مختلفة من الطاقة. ومع أن فرويد يشير إلى غريزة الجوع وغريزة العطش وغيرهما، إلا أنه لم يعرها أي اهتمام. ووجد أن غريزة حب البقاء التي أطلق عليها اسم «ايروس EROS»(*) والمتمثلة أساساً في الغريزة الجنسية هي الجوهر الطاقي للعضوية. وللتعبيرعن حجم ونوعية هذه الطاقة استخدم فرويد مصطلح الليبيدو LIBIDO.

إننا لو أردنا تحديد الغريزة(أو الغرائز) الجنسية في النظرية الفرويدية لقلنا بأنها طاقة نفسية فطرية تحرك النشاط النفسي للشخص وتوجهه نحو الإشباع الجنسي. وتبين الخبرة الميدانية أن أفعال الناس الموجهة نحو إشباع رغباتهم الجنسية تصطدم دوماً بعوائق خارجية مصدرها المجتمع. ويرجع فرويد سبب ذلك إلى مخالفة الأشكال والأساليب المتبعة في هذا النشاط للقيم الأخلاقية السائدة في المجتمع. وهذا ما يقود إلى

كبت الانفعالات والأفكار التي رافقت أو نجمت عن حرمان الغريزة من الإشباع. فالكبت يحدث، إذن، في كل مرة يصطدم فيها إشباع الغريزة الجنسية بـ«الممنوع الاجتماعي». ومادام الكبت يعني انتقال تلك الانفعالات والأفكار إلى ساحة اللاوعي وبقاءها في حالة نشاط وتأثير على الإنسان، فإن مزيداً من عمليات الكبت سوف يؤدي إلى نشوء الحالة المرضية العصابية، كالهستيريا، وتشكل العقد النفسية، كعقدة أوديب.

ولما كانت الطاقة الجنسية المختزنة في اللاوعي (الليبيدو) هي التي توجه أفعال الإنسان وتصرفاته ـ كما ذكرنا منذ قليل ـ فقد قرر فرويد أن تكون بداية الحياة الجنسية مع «صيحة الاحتجاج» الأولى التي يطلقها الوليد فور خروجه من رحم أمه. ولهذا نراه يتتبع تجليات الغريزة الجنسية وتحولاتها على امتداد سنوات الطفولة، ويتصور أن تلك التجليات تتجاوز تنبيه العضو التناسلي لتشمل مختلف مناطق البدن. فالوظائف الحياتية تكون مشحونة بشحنة ليبيدوية منذ الولادة. ويطلق فرويد عليها اسم «المناطق الشبقية ـ الذاتية»، لأن تفريغ شحنتها لا يستدعي وجود موضوع خارجي، وإنما يتم بفعل ذاتي يقوم به الطفل كالمص والحك والتغوط... الخ، وهنا يتحدث عن ثلاثة مناطق شبقية رئيسية هي: الفم والشرج والعضو التناسلي. وبكل واحدة منها يناط إشباع حاجة حيوية معينة. فالفم يتولى إشباع الحاجة إلى الطعام. والشرج يقوم بتخليص العضوية من الفضلات. وعضو التناسل يؤدي وظيفة التكاثر، وهكذا فإن مفهوم الحياة الجنسية عند الطفل في الاستعمال الفرويدي لا يقتصر على الوظيفة التناسلية فقط، بل يشمل «كل ما يتلعق بنشاطات الطفولة الأولى الهادفة إلى المتعة المحلية التي يمكن لهذا العضو أو ذاك أن يحصل عليها»، ويلفت فرويد انتباهنا إلى وجود أفعال يقوم بها الطفل عن طريق المناطق الشبقية لا تقود إلى إشباع الحاجة الحيوية المنوطة بها، بقدر ما تحقق خفض التوتر. فقرض الأظافر لا يسد جوع الطفل، والاستمناء لا يؤدي إلى الإنجاب، وإنما يساعدان على التخفيف من التوتر الذي يعاني منه الفرد.

وهكذا فالمناطق الشبقية تلعب دوراً رياديا في نمو الشخصية وتبلور سماتها، لأنها تعتبر، في رأي فرويد، نوافذ لاتصال الطفل بعالمه الخارجي، وبالتالي ، مصدر تجاربه وخبراته. فما يرافق إشباع الطفل لحاجاته(أو عدم إشباعه لها)، من مشاعر سوف يصبح مركباً لسلوكه الجنسي اللاحق وسبباً في هواماته الواعية واللاواعية.

ومن هذا المنطلق يقرر فرويد أن الأعوام الخمسة أو الستة الأولى من حياة الإنسان هي التي تحدد معالم شخصيته ونمطها. وتبعاً للمناطق الشبقية وتعاقب تمركز الطاقة الجنسية فيها يقسم مراحل النمو ويصنّف الشخصيات. فالطفل يمر بثلاث مراحل أساسية: المرحلة الفمية، والمرحلة الشرجية، والمرحلة القضيبية، وعلى أساس السلوك الجنسي في كل مرحلة منها تتكون ثلاثة أنماط من الشخصية: النمط الفمي، والنمط الشرجي، والنمط القضيبي.

١ ـ المرحلة الفمية: ORAL PHASE يعتبر فرويد الفم أولى المناطق الشبقية الطفلية التي تشرع بأداء وظائفها بعد انفصال الطفل عن الأم مباشرة. فالطفل يحقق اللذة في مطلع حياته بمص الأشياء(ثدي الأم، الرضاعة..)، التي تقترب من شفتيه، أو توضع في فمه. كما يحققها بعد ظهور الأسنان عن طريق العض. وإذا كانت العملية الأولى تزود الطفل بلذة جنسية، فإن العملية الثانية(العض) تزوده باللذة العدوانية. وفي حال تناول الطفل للأشياء المؤلمة(الصلبة أو الحامضة أو المرة) فإنه سرعان ما يعمل على إبعادها عن طريق بصقها. بينما نراه يسلك سلوكاً معاكساً إن هو تعرض إلى محاولة انتزاع شيء لذيذ من فمه، حيث نجده يقاوم ذلك بواسطة غلق فمه. ويذهب فرويد إلى هذه الأفعال(المص، العض، البصق، الإغلاق)، تشكل الخبرات السلوكية الأولى للطفل، وأن تكرارها أو تكرار بعضها في هذه المرحلة يمهد السبيل لتكون بعض سمات الشخصية التي توجه علاقة الفرد بالعالم الخارجي. ويعني ذلك أن كل سمة تقوم على فعل من هذه الأفعال.

فالاتجاه نحو المعرفة والاكتساب وحب الاطلاع تتكون على أساس خبرة المص وتناول الأشياء عن طريق الفم. والعدوان والتخريب والمشاكسة هي نتاج خبرة العض.

والاستخفاف والاحتقار والاستعلاء هي تعميمات لخبرة البصق. والسلبية والانسحاب والمعارضة تستمد أصولها من خبرة الإغلاق. وبكلمات أخرى فإن ظهور هذه السمات أوغيابها يتوقف على مدى ما يتيحه المحيط للطفل من مثيرات تحرضه على ممارسة هذه الأفعال أو تكفه عن القيام بها.

٢ ـ المرحلة الشرجية ANAL PHASE يقرن فرويد ظهور هذه المرحلة بنمو عضلات المصرات في نهاية القناة الهضمية، أي في الشرج، حيث يصبح الطفل قادراً على ضبط إخراج الفضلات والتحكم بعملية التبرز التي تقضي على توتره أو تخفف منه وتجلب له الإحساس باللذة. ويعتقد فرويد أن خبرة الطفل في مجال تفريغ الشحنات الجنسية في هذه المنطقة الشبقية هي مصدر تكون الحالات الانفعالية والمزاجية. وقد حدد بداية هذه المرحلة في العام الثاني من حياة الطفل، حيث تبادر الأم إلى إخضاع عمليتي التبول والتبرز للمتابعة والمراقبة الدائمتين بهدف إكسابه القدرة على ضبطهما والتحكم بهما. ولهذا فإن على علاقة الأم بطفلها خلال هذه المرحلة والأساليب التي تتبعها في تنظيم هاتين العمليتين وتعلمه كيفية ضبطهما يتوقف نشوء الكثير من جوانب شخصيته. فأسلوب القسوة قد يدفع بالطفل إلى الإصرار والعناد كتعبير عن رفضه لتدخل أمه. وأسلوب اللين واللطف يحمله على إبداء قدر كبير من المرونة والطاعة. ويرجح فرويد أن يصبح الطفل في الحالة الأولى مشاكساً ومتمرداً، وفي الحالة الثانية كريماً ومحباً.

وعلى صعيد آخر يرى فرويد أن الاحتفاظ بالبراز وحجزه الإرادي يجلب للطفل شعوراً باللذة، مثلما تجلبه عملية التبرز نتيجة إثارة الغشاء المخاطي الشرجي. وبالمقابل فإن إخراجه يجعل الطفل قلقاً وحزيناً ويترك لديه شعوراً بالفراغ. ولقد تحدث عن سمات الشخصية التي تتكون في ضوء الخبرات التي يمر بها الإنسان خلال المرحلة الشرجية، فوجد أن البخل والحرص على الأشياء والممتلكات والتمسك بها هي امتداد لخبرات الحجز الإرادي للبراز. والنظافة والانضباط والترتيب هي تعميمات لتجاوب الطفل مع توجيهات الأهل وإرشاداتهم.

٣ ـ المرحلة القضيبية PHALLIC PHASE وتبدأ هذه المرحلة عادة في السنة الثالثة من عمر الإنسان. وفيها يتحول التركيز الليبيدوي من الشرج إلى عضو التناسل. فيبدأ الطفل بتوجيه اهتمامه نحو هذه المنطقة الشبقية والشعور بلذة «حسية» لدى لمسه لعضوه التناسلي وتدليكه له. وتتسم هذه المرحلة بتزايد الرغبة الجنسية عند الطفل نحو الوالدين. فإذا كان الصبي في السابق يحب أمه ويتقمص أباه، فإن حبه لأمه الآن يتخذ طابعاً جنسياً، ويتحول موقفه إزاء أبيه إلى شعور بالغيرة والكراهية، ويدعو فرويد هذه الحالة بـ«عقدة أوديب» وقد اقتبس هذه التسمية عن الأسطورة اليونانية التي تحكي قصة الأمير أوديب الذي قتل أباه(لايوس ملك طيبة) دون أن يعرفه، ثم تزوج أمه (جوكاست) فأنجبت له أربعة أولاد. وعندما عرف الحقيقة فقأ عينيه ورحل عن المدينة بصحبة إحدى بناته. وتسبب عقدة أ وديب في نشوء مخاطر طفلية تتمثل في خوف الطفل من رد فعل أبيه على موقفه من أمه. وقد يصل هذا الخوف إلى حد القلق من أن يلحق به أبوه أذىً جسدياً، فيقطع قضيبه لكونه مصدر الخطر. وهذا ما عرفه فرويد بـ«قلق الخصاء».

ومما يثير لدى الصبي مثل هذه المخاوف هو اكتشافه لنقص التكوين الجنسي للبنت وافتقارها إلى العضو التناسلي الذي يمتلكه وبالنتيجة يكبت الطفل رغبته بالانفراد بأمه جنسياً وكراهيته لأبيه، وبذا تختفي عقدة أوديب عنده. وهنا يقول فرويد بتقمص الطفل لأمه إذا كانت الغلبة لعناصر الأنوثة في تكوينه العضوي، وتقمصه لأبيه إذا كانت الغلبة لعناصر الذكورة عنده. وفي الحالة الأولى يشبع الطفل رغبته الجنسية نحو أمه بصورة جزئية، بينما تفسح الحالة الثانية المجال أمامه ليشارك أباه في شحناته الانفعالية تجاه الأم.

ومما تجدر الإشارة إليه، هنا، هو وجود سمات مشتركة، علاوة على السمات المختلفة، لاندفاعات الطاقة الجنسية عند كل من الذكر والأنثى في المرحلة القضيبية. فالبنت ـ كالصبي ـ تتوجه بحبها نحو أمها، ولكنها تختلف عنه في أنها لا تتخذ من الأب موضوعاً للتقمص. وحينما تكتشف النقص في تكوينها العضوي بالمقارنة مع الصبي فإنها تشعر بالخصاء، ويتغير شعورها تجاه أمها، فتحل الغيرة والكراهية

محل الحب، بينما يظهر لديها رغبة جنسية تجاه أبيها لأنه يمتلك العضو الذي حرمت منه. وهذا ما أطلق عليه فرويد «حسد القضيب»، وهو يقابل «قلق الخصاء» عن الذكر، ويعتبر «حسد القضيب» و «قلق الخصاء» وجهين لعقدة الخصاء.

وإذا كان «حسد القضيب» يؤدي إلى ظهور عقدة أوديب عند البنت، فإن «قلق الخصاء» ينذر باختفاء هذه العقدة عند الذكر. ولكن ذلك لا يعني أن عقدة أوديب تظل العلامة المميزة للطاقة الجنسية عند البنت، بل إنها تضعف تدريجياً مع نمو العضوية واستحالة تحقيق إشباع جنسي عن طريق الأب. وتلك مؤشرات دخول الغريزة الجنسية في فترة الكمون LATENCY PERIOD التي تستمر ـ كما هو الحال عند الولد ـ حتى سن البلوغ. وتعرف هذه المرحلة حلول التقمصات محل الشحنات الموجهة إلى الخارج. ويتحدد موضوع التقمصات على أساس العناصر الجنسية المزدوجة التي تتكون منها الطاقة الجنسية عند البنت. فإذا كانت العناصر الأنثوية عندها هي الأقوى تقمصت أمها. وإذا كانت العناصر الذكرية هي الأقوى تقمصت أباها..

وبهذه الفرضيات التي لم تجد في العلم حتى الآن ما يثبت صحتها، والتي كانت وما زالت أقرب إلى إسقاط تخيلات ذاتية على الواقع، وإقحامها ضمن الحقائق الموضوعية، حاول مؤسس التحليل النفسي تفسير السلوك السوي والمرضي على حد سواء. وبذل جهوداً ضخمة في البحث عن مرتسمات لأفكاره ومفاهيمه في الحالات المرضية التي أشرف على علاجها، ومن ثم ترتيب كل ذلك ووضعه في قوالب محددة وتقديمها على شكل نظرية تدعي بأنها كشفت عن أسرار اللغز الإنساني، وحسمت الحوار الطويل الذي يمتد إلى تاريخ قديم حول مسألة الدوافع المحركة لنشاط الفرد برمته. فقد وجد أن عقدة أوديب هي مصدر الأعراض المرضية، مثلما هي مرجع لتأويل روائع الإسهامات الإبداعية للفنانين والكتاب وغيرهم. وهذا ما عبر عنه بوضوح في إحدى رسائله حين قال: «... لم يراود خاطري سوى فكرة واحدة لها قيمة عامة. لقد وجدت في، كما لدى أي فرد آخر، مشاعر حب نحو أمي ومشاعر غيرة نحو أبي. وهي مشاعر نجدها، على ما أعتقد، لدى كل الأطفال الصغار حتى عندما لا يكون ظهورها مبكراً للغاية، كما هو الحال لدى الأطفال الذين سيصبحون

لاحقاً من الهستيريين. وعليه فإننا، رغم كل الاعتراضات المنطقية التي تجعلنا نستبعد فرضية القدر المحتوم، نفهم الأثر الأخاذ لمسرحية أوديب الملك. فالأسطورة اليونانية قد استحوذت على نزعة قهرية يمكن لأي كان أن يتعرف عليها، إذ وجد الجميع أثراً لها فيهم. فكل مشاهد كان في يوم من الأيام أودييباً بالقوة وبالخيال، ويمتلكه الهول أمام تحقيق حلمه الذي يمثل كحقيقة على الخشبة. ويقيس هوله درجة الكبت الذي يفصل حالته الطفلية عن حالته الحاضرة. ويتبادر إلى ذهني أننا قد نجد الشيء ذاته في جذور مأساة هاملت. فكيف يمكننا أن نفهم تردد هاملت في الثأر لأبيه بقتل عمه في حين لا يتردد لحظة واحدة في قتل لاييرت؟.. كيف يمكننا أن نشرح ذلك بأفضل من العذاب الذي تحدثه فيه الذكرى الغامضة بأنه فكر في الجرم نفسه(الذي ارتكبه عمه) تجاه أبيه بسبب حبه لأمه؟»..(رزق الله، بلا تاريخ، ٧٠، ٧١).

كان فرويد حريصاً على نشر كل ما يستجد لديه من كشوف واستنتاجات، وإطلاع الوسط العلمي على آرائه وتصوراته أولاً بأول، وقد استهل المرحلة الجديدة من حياته العلمية بنشر مؤلفاته «تفسير الأحلام» الذي كتبه خلال عامين. وفرغ من وضعه في أيلول (سبتمبر) عام ١٨٩٩. وصدر في تشرين الثاني(نوفمبر) من نفس العام. وفضل الناشر أن يكون عام ١٩٠٠ هو عام إصداره.

يتحدث فرويد في هذا العمل المشهور عن دينامية النفس البشرية ومفهوم اللاوعي ووظائفه وقوانينه ودوره الكبير في حياة الفرد. كما يعرض لمفهوم الحلم ورمزيته وتقنيات ترجمة صور الأحلام وردها إلى أفكارها الأصلية. وعلى عكس ما كان يتوقعه فرويد أو يرغب فيه من إثارة الآخرين بأفكاره الجديدة واهتمامهم بها، فقد قوبل كتابه هذا بكثير من البرود واللامبالاة، بل بالنقد والسخرية في بعض التعليقات عليه. بيد أن ذلك لم يثن من عزيمة صاحبه وطموحه في أن يصبح «رجلاً ذا شأن عظيم» فواصل عمله بصبر وعناد لتقديم مزيد من التوضيحات والأدلة على صحة أفكاره وتصوراته، وبعد بضع سنوات نشر كتاباً بعنوان: «علم النفس المرضي في الحياة اليومية»(١٩٠٤) تعرض من خلاله إلى الدوافع اللاواعية التي تكمن وراء زلات اللسان والقلم وأخطاء الإدراك والذاكرة وفقدانهما كلياً أو جزئياً وأحلام اليقظة

وما إليها من الظواهر النفسية. وفي العام نفسه أصدر كتاباً آخر بعنوان «حالة من حالات الهستيريا». وذكر فيه الأسباب النفسية للأمراض العقلية. وفي عام ١٩٠٥ نشر كتابه «ثلاث مقالات في النظرية الجنسية»، الذي أصبح أحد أهم المراجع في التحليل النفسي. وتتبع فيه مراحل نمو الغريزة الجنسية ومظاهرها في كل مرحلة منها على نحو ما ذكرنا سابقاً. ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن فرويد لم يعن بمفهوم المرحلة التحسن التدريجي للأفعال والوظائف النفسية عند الطفل، بقدر ماكان يصف به انتقال الطاقة الليبيدوية من منطقة شبقية إلى منطقة شبقية أخرى، وتحولات أشكال العلاقات أثناء هذه المراحل وصولاً إلى المرحلة الجنسية التناسلية. وقد لاحظ فرويد ـ زيادة على هذا ـ أن مسار الغريزة الجنسية ليس محدداً تحديداً صارماً. فتأثير بعض مكونات المرحلة الأدنى يبقى ملحوظاً في المراحل الأعلى. «وهكذا فإن عناصر فمية أو شرجية تلعب دوراً مهماً فيما يتعدى المرحلة الفمية والشرجية. إن الدوافع ماقبل التناسلية تستمر في حياة الراشد» (سميرنوف، ١٩٨٢، ٩٨).

ويلاحظ فرويد أن سمة الغريزة الجنسية في فترة ماقبل الجنسية التناسلية هي النرجسية NARCISSISME. ويقصد بالنرجسية تلك الإحساسات الإيجابية (اللذة) التي تنشأ بفعل التنبيهات الذاتية مثل مص الأصابع والتبرز أو حبس الفضلات والاستمناء.

وفي نفس العام، أي عام ١٩٠٥، درس فرويد في كتابه «النكتة وعلاقتها باللاوعي» أهمية النكتة بالنسبة للإنسان باعتبارها نافذة أو قناة لتفريغ الشحنات الانفعالية حينما لا تتيسر إمكانية تفريغها بصورة عادية. ويذكر المؤرخون أن فرويد كتب مؤلفّيه «ثلاث مقالات...» و«النكتة...». في فترة واحدة وخلال بضعة أشهر. وقبل نهاية عام ١٩٠٥ حسم أمره بعد تردد دام أربعة أعوام، وقرر نشر حالة دورا بعنوان «نبذة من تحليل حالة هستيريا»(دورا).

وبفضل المثابرة والإصرار تمكن فرويد شيئاً فشيئاً من استقطاب عدد من الأطباء الذين كانت أغلبيتهم العظمى من اليهود، أمثال: و.شتيكل (١٨٦٨-١٩٤٠م) صاحب طريقة في العلاج تعرف بـ«التحليل الفعال» ومؤلف عدد من الكتب في النظرية

الجنسية، وأوتورانك (١٨٨٤-١٩٣٩م) الذي طبق التحليل النفسي في الفن والأدب، وصاحب كتاب «صدمة الميلاد»، الذي عرض فيه فكرته حول انفصال الطفل عن أمه ودوره في العصاب، وأن الرغبة الجنسية للذكر تخفي رغبته في العودة إلى رحمها، وكارل أبراهام(١٨٧٧-١٩٢٥م) الذي حاول تفسير طبع الإنسان بتثبيت تغيراته عند مرحلة من مراحل النمو الجنسي، وساندور فرنتزي (١٨٧٣-١٩٣٣م)، صاحب تقنية حرمان المريض من الطعام والنوم وإشباع حاجاته المتبقية في حالة ما إذا أبدى مقاومة التداعيات الحرة، وذلك بغية زيادة الطاقة الليبيدوية ويمكن أن نضيف أيضاً إ.جونز (١٨٧٩-١٩٥٨م) رائد حركة التحليل النفسي في إنكلترا ومترجم حياة فرويد، وم.ايتينهاين (١٨٨١-١٩٤٣م) وهـ.ساكس(١٨٨١-١٩٤٧م)، ول.بينسفانغر (١٨٨١-١٩٦٦م) الذي انشق، فيما بعد، عن التحليل النفسي ووضع نظرية «التحليل الوجودي» الذي ترى أن مهمة الطبيب النفسي تبدأ من التصور الذي يحمله العميل عن العالم. ويبقى أن نشير إلى أن أ.أدلر، أحد الوجوه البارزة في حركة التحليل النفسي، كان في طليعة الذين تجمعوا حول مؤسسها.

لقد ألّف هؤلاء الأطباء مجموعة انضوت تحت لواء التحليل النفسي. وكانت تجتمع بقيادة فرويد وفي منزله مساء كل أربعاء. ولهذا سميت بـ»جماعة الأربعاء النفسية».

وفي تلك الأثناء لفتت آراء فرويد انتباه بلولر، طبيب الأمراض العقلية في مدينة زيوريخ ومساعده يونغ. وأبدى الرجلان استعداداً لتطبيق التحليل النفسي في نشاطهما العلاجي. وقد سرّ فرويد كثيراً حينما عرف بذلك، واعتبر أن هذا الموقف يمهد الطريق أمام انتشار أفكاره في أوساط المسيحيين، بل ويضع حداً لكراهيتهم ومعاداتهم لليهود في فيينا. ولهذا سعى للقاء بلولر ويونغ. وفي آخر يوم أحد من شهر شباط(فبراير) عام ١٩٠٧ استقبل فرويد يونغ في منزله، وتبادل معه الآراء في جلسة طويلة تركت لديه انطباعاً إيجابياً عن ضيفه وقدراته العلمية. وأبدى رغبة شديدة في توطيد علاقته به وتوظيفها لصالح حركته في المستقبل.

وفي ١٩٠٧/٩/٢٢ اتخذ فرويد قراراً بحل «جماعة الأربعاء النفسية».وقد ورد هذا القرار في رسالة بعث بها إلى أعضاء الجماعة عندما كان في روما. ولكنه طلب في الوقت نفسه ممن يريد منهم تقديم طلب انتساب جديد. وفي شهر نيسان(أبريل) من عام ١٩٠٨ عقد المؤتمر الأول للتحليل النفسي في فندق بريستول في مدينة سالسبورغ. ومن بين القرارات التي اتخذها المؤتمرون إصدار مجلة باسم «مجلة التحليل النفسي وعلم النفس المرضي»، وأن يكون فرويد وبلولر مديرين لها، ويونغ رئيساً لتحريرها. ولكن الخلاف الذي نشب بين يونغ وأبراهام كاد أن يحدث شرخاً في التجمع الجديد لولا تدخل فرويد ووقوفه المصلحي إلى جانب يونغ، ومحاولاته الدؤوبة لثني أبراهام عن موقفه وإقناعه بأهمية وجود يونغ معهم. والحقيقة أن ذرائعه في هذا الشأن كانت بعيدة تماماً عن العلم وروحه. وهذا ما يبدو واضحاً من خلال رسائله إلى أبراهام. فقد جاء في إحداها مايلي: «تذكر أن يونغ، وهو مسيحي وابن قسّ، قد تغلب على مقاومات كبيرة قبل أن يجد طريقه إلي»... وأن علينا نحن اليهود، إذا أردنا التعاون مع الآخرين، أن نبدي بعض المازوكية، وأن نستعد لتحمل بعض الظلم». ويعلل ذلك بأنَّه «لا غنى عن أصدقائنا الآريين. دونهم يقع التحليل النفسي ضحية المعاداة للسامية»(رزق الله، بلا تاريخ، ٧٨).

ولقد وجد فرويد في الدعوة التي وجهها إليه ستانلي هول رئيس جامعة كلارك . وورشستر في أيلول(سبتمبر) عام ١٩٠٨، فرصة سانحة لتوسيع دائرة نشاطه ونشر أفكاره. وهناك بسط نظريته في خمس محاضرات جمعها فيما بعد ونشرها تحت عنوان «محاضرات في المدخل إلى التحليل النفسي».

ومما ينبغي إبرازه في هذا السياق هو ذلك الأثر الإيجابي الذي تركته زيارته للولايات المتحدة الأمريكية على صعيد حركة التحليل النفسي، الأمر الذي حدا به إلى التفكير في تأسيس رابطة دولية للمحللين النفسيين. وقد استغل فرصة انعقاد المؤتمر الثاني للتحليل النفسي في مدينة نورمبرغ عام ١٩١٠ فاختار فرنتزي وطلب منه عرض هذا الاقتراح على المؤتمرين. فلاقت الفكرة استحسان الجميع وتمت الموافقة على إنشاء الرابطة. وباقتراح من فرويد صوت الحاضرون لصالح يونغ لكي يكون رئيساً لها، واختاروا مدينة زيوريخ

لتكون مقرها الدائم. بيد أنه سرعان ما بدأ الخلاف الفكري يطبع علاقة فرويد بعدد من أعضاء الرابطة. ولم يمضِ عام على تأسيس الرابطة حتى أعلن أدلر انفصاله عن فرويد، وتبعه شتيكل عام ١٩١٢، ثم يونغ عام ١٩١٣.

وعلى الرغم مما أثارته تلك الانقسامات من مخاوف على واقع حركة التحليل النفسي ومستقبلها لدى أعضاء الرابطة، فقد بقي فرويد متمسكاً بآرائه ومتحمساً لتطويرها وتعميقها ومسخراً كل جهوده وقدراته لجمع الأدلة والشواهد على صوابية نهجه وضرورة الاستمرار فيه. وتجسد ذلك في ميله نحو الفلسفة، وعلم الاجتماع، والدين، والأنتروبولوجيا، واهتمامه بما قيل أو كتب في هذه الميادين عن مكانة الغريزة الجنسية في الوعي الاجتماعي والممارسة البشرية وصولاً إلى مقاربات يجد فيها ومن خلالها البعد المادي والجذور التاريخية لأطروحاته. ولقد ابتغى من وراء بحثه في التاريخ البشري العثور على ما يثبت وجود الحقيقة الأوديبية فينا. كما أراد أن يتلمس في الروابط الاجتماعية القديمة ما يفسر الأعراض المرضية لدى الإنسان المعاصر. وقد أشار إلى ذلك بقوله: «وإني لأعلق أهمية كبرى على مشاركاتي في سيكولوجيا الدين،تلك التي استهلت عام ١٩٠٧ بعقد تشابه ملحوظ بين عصاب الأفعال القهرية وبين الطقوس والشعائر الدينية. وقبل أن أفهم الصلات العميقة، وصفت عصاب القهر بأنه دين خاص مشوّه، والدين بأنه عصاب قهري عام. ثم أدت بي ملاحظات يونغ الصريحة عام ١٩١٢ في المشابهات القوية بين منتجات العصابيين النفسية وبين منتجات الشعوب البدائية إلى توجيه انتباهي إلى ذلك الموضوع»(فرويد، ١٩٦٧، ٧٦).

وللتدقيق في المقارنات والمشابهات التي شجعت ملاحظات يونغ عليها قرر فرويد اللجوء إلى ماقاله علماء الأجناس والسلالات والاحتكام إلى دراساتهم. فكانت مؤلفات مثل «الطوطمية والزواج الخارجي»، و«الغصن الذهبي»، لفريزر و«ديانة الساميين» لروبرتسون سميث أبرز ما اعتمد عليه من مصادر في هذا الميدان. حيث أخذ عن الأول ما أورده حول «تحريم قتل الطوطم، وتحريم الاتصال الجنسي بأية امرأة من عشيرة الطوطم»، وعن الثاني الطقوس الطوطمية المتمثلة في قتل الطوطم المقدّس مرة كل عام بمشاركة جميع أفراد العشيرة وأكله من قبلهم وفق مراسم محددة، وما يعقب

ذلك من احتفالات وحزن ونواح. ولقد رأى فرويد في الخلفية التاريخية لهذه العلاقات والطقوس بداية تكون الرغبة البشرية في قتل الأب والزواج بالأم، وتشكل عقدة أوديب.

وعلى الرغم من ضعف الوثائق والمعطيات التي اعتمد عليها كل من فريزر وسميث وافتقارها إلى السند الموضوعي الصحيح، كما وصفها الباحثون، فقد قام فرويد بتعميمها، ووضع فرضية القبيلة البدائية التي كان يتزعمها أب طاغية استحوذ على جميع نسائها، ولم يسمح لأحد من أولاده بمشاركته، بل وعمل فيهم قتلاً وطرداً وتشريداً، تحسباً لأي مساس بسلطته وسلطانه.وكرد فعل على بطشه وطغيانه اجتمع الأبناء ذات يوم فقتلوه وافترسوه. وسرعان ما نشب الخلاف بينهم. إلا أنهم تحت وطأة الشعور بالإخفاق والندم تمكنوامن رأب صدعهم وجمع كلمتهم، وتشكيل قبيلة تحكمها قوانين الطوطمية. وتعاهدوا على العمل معاً من أجل تجنب كل ما من شأنه تكرار فعلتهم، فاتفقوا على التخلي عن الاتصال الجنسي بالنسوة اللائي كن سبباً في قتلهم لأبيهم، وأن يتخذوا من النساء خارج قبيلتهم موضوعاً لإشباع رغبتهم الجنسية. وصاروا يحيون ذكرى مقتل الأب على شكل وليمة تقام مرة كل عام تكفيراً عن خطيئتهم.

ويعتقد فرويد أن هذه القصة تكشف عن سر ظهور الدين والأخلاق وما يشتملان عليه من طقوس وشعائر وقيود. وقد عبر عن اعتقاده بقوله: «والآن سواء تصورنا أن احتمالاً هذا شأنه كان واقعة تاريخية أو لم يكن، فهو قد أدخل نشأة الدين ضمن مجال عقدة أوديب، وأقامه على أساس الازدواج العاطفي الذي يسيطر على هذه العقدة. وبعد أن لم يعد الحيوان الطوطم يقوم مقام الأب، أصبح هذا الأب ـ موضع الخوف والبغض، والتقديس والغيرة في آن واحد ـ أصبح نموذجاً أولياً للإله ذاته. وقام في نفس الابن صراع بين التمرد على أبيه وبين محبته له خلال محاولات متتالية للتوفيق بينهما، بغية التكفير عن فعلة اغتيال الأب من ناحية، وتدعيم المنافع التي أثمرت عنها من ناحية أخرى. هذه النظرة للديانة تلقي ضوءاً قوياً على الأساس السيكولوجي للديانة المسيحية، التي لا تزال «وليمة الطوطم» توجد فيها مع تحريف ضئيلٍ على شكل التناول(فرويد، ١٩٦٧، ٧٩). ولكي يرد فرويد عن نفسه تهمة التعصب الديني، ويغلق جميع الأبواب أمام دعاوي التهجم على الديانات الأخرى، فقد سارع

إلى القول بأن الإشارة الأخيرة إلى الطوطمية واعتبارها أساساً للمسيحية مقتبسة عن الآخرين:»... إن تلك الملاحظة الأخيرة لم تكن ملاحظتي أنا، بل توجد في مؤلفات روبرتسون سميث وفريزر.»(فرويد، ١٩٦٧، ٧٩). ويمثل هذا الاستنتاج الفكرة الأساسية التي قدمها في كتابه «الطوطم والتابو»(المقدس والمحرم) الذي تردد طويلاً في نشره بسبب ارتيابه في صحة محتواه، ولاسيما تلك الأحداث والوقائع التي تصور بداية العلاقات الاجتماعية والقائمة على المعايير الأخلاقية والأبعاد النفسية. وقد دفعته ريبته إلى الاستئناس بآراء تلاميذه والمقربين إليه في هذا العمل. ثم حزم أمره وقرر نشره عام ١٩١٣. وعندما سئل عن سر تردده، أمام هذه الخطوة، وهو صاحب «تفسير الأحلام» وبلوغ قلقه إلى هذا المستوى أجاب: «في تفسير الأحلام كنت أتكلم عن رغبة قتل الأب، أما الآن فإني أصف الحدث الفعلي: وشتان مابين الرغبة والفعل»(رزق الله، بلا تاريخ، ٨٠).

يتألف «الطوطم والتابو» من أربع مقالات نشرت في مجلة (إيماجو ـ IMAGO) وهي على التوالي: (تهيب سفاح القربى، التابو وازدواجية الانفعالات العاطفية، الأحيائية والسحر وطغيان الأفكار، العودة الطفولية إلى الطوطمية). وقد سعى فرويد من خلالها: «..... لتطبيق وجهات نظر ونتائج التحليل النفسي على مسائل غير محسوسة في سيكولوجية الشعوب»(فرويد، ١٩٨٣، ١٩). وذلك بتحليل كل من الطوطمية والتابوية والقيام بإسقاطات تاريخية على واقع النمو النفسي للإنسان الحالي. وخلص إلى أن الطوطمية»... مؤسسة اجتماعية ـ دينية غريبة عن شعورنا الحالي، جرى منذ زمن بعيد التخلي عنها واستبدالها بأشكال أكثر حداثة ، ولم تخلف وراءها سوى آثار طفيفة في أديان وأعراف وعادات الشعوب الحضارية المعاصرة، وتحتم عليها أن تلاقي تقلبات كبيرة حتى لدى تلك الشعوب التي لا تزال تتمسك بها حتى اليوم»(فرويد ١٩٨٣، ٢٠).

أما التابوية فإنها لا تزال تعيش فينا. إنها برأيه، القوة المطلقة التي لا نملك إلا التسليم بها والخضوع لسلطانها. فلئن استطاع التقدم الحضاري للمجتمعات البشرية أن يحد من نفوذ الطوطمية فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للتابو وسلطته.

وباختصار فإن غرض فرويد من عمله هذا هو إثبات أن عقدة أوديب هي مصدر التراكم الحضاري الذي حققته الإنسانية، وسر تطور النوع البشري، مثلما هي شرط نمو الفرد وتبلور سمات شخصيته.

إن نظرية فرويد في نمو الغريزة الجنسية لدى الإنسان وما تضمنته من مفاهيم كعقدة أوديب ومراحل تمركز الشحنات الليبيدوية وانتقالها من عضو إلى آخر، لا تقوم على أسس علمية. لذا فإنها - كما جاء على لسان فالون - أقرب إلى الأسطورة منها إلى العلم كونها لا تخضع لقوانينه، ولا يمكن إثبات صدقها أو التحقق من صحتها عن طريق التجربة. ولكن فرويد لم يأبه كثيراً بالاعتراضات والانتقادات. ومضى في سبيله ليطور نظريته ويعدل أفكاره في ضوء ممارساته العيادية. فقد اهتدى منذ عام ١٩٢٠ إلى وضع نظام نفسي جديد يتألف من «الهوID» و«الأنا EGO» و«الأنا الأعلى SUPER EGO» بدلاً من النظام السابق الذي تقوم النفس فيه على اللاوعي وما قبل الوعي والوعي. ولعلنا نجد في كتبه «ما فوق مبدأ اللذة»،(١٩٢٠) و«سيكولوجية الحشد وتحليل الأنا»(١٩٢١) و«الأنا والهو»(١٩٢٣) و«الكبت والعرض والقلق»(١٩٢٦) عرضاً لبنية الجهاز النفسي وموقع اللاوعي فيه ووظيفة كل من الهو والأنا والأنا الأعلى وعلاقتهم بعضهم ببعض. فالهو يعتبر النظام الأصلي من الجهاز النفسي الذي لا يعرف التغير أو التبدل. ويتكون من كل ماهو موروث وموجود سيكولوجياً عند الولادة بما في ذلك الغرائز. وهو خزان الطاقة النفسية الذي يزود الأنا والأنا الأعلى بها. كما أنه يستمد طاقته من العمليات الجسمية التي يتصل بها اتصالاً وثيقاً. وقد عرفه فرويد بأنه«الواقع النفسي الحقيقي». والهو يرفض أية زيادة في الطاقة. وإن حدث ذلك فإن الشخص يعاني من توتر، مما يدفعه إلى القيام بما من شأنه تفريغ الشحنات الطاقية الزائدة. وهذا ما جعل فرويد ينظر إليه كمحرك لنشاط الفرد. والهو متمرد على قوانين العقل والقيم الأخلاقية. إنه - قوة عمياء لا تخضع إلا لـ«مبدأ اللذة».

وهكذا يعمل الهو على التخلص من الضيق والألم اللذين يحدثهما التوتر وينشد اللذة. وسبيله في ذلك الأفعال الانعكاسية الفطرية كالعطس والمص والغمز وسواها. ويستخدم لهذا الهدف أيضاً العمليات الأولية التي تتجلى في الاستجابات السيكولوجية

البسيطة. إذ بفضلها تتشكل صور موضوعات إشباع الحاجات الفطرية التي تساعد على تفريغ الشحنات الزائدة من الطاقة وتخفف من توتر الكائن البشري. وفي هذه الحالة يصبح تصور الأشياء والاحتفاظ بها في الذاكرة مكافئين لإدراكها. وتؤدي هذه العملية إلى خفض التوتر والشعور باللذة تماماً مثلما يحدث خلال تتابع الصور في الحلم.

غير أن العمليات الأولية بحد ذاتها لا تحقق الهدف المنشود. ذلك لأنها ليست قادرة على تخليص الشخص من الطاقة الزائدة تماماً وبصورة دائمة. فالصور المختزنة في الذاكرة عن الطعام أو الماء لا تشبع الجائع ولا تروي العطشان. وقد حملت هذه الحقيقة فرويد على الاعتقاد بأن سبب تكون العمليات النفسية الراقية يتمثل في العمليات النفسية الثانوية التي تؤلف مضمون الجزء الثاني من النظام النفسي وهو «الأنا».

ولما كان بقاء الإنسان واستمرار الإنسانية هدفاً نهائياً للوجود الإنساني؛ فإن على الفرد منذ طفولته المبكرة أن يلبي حاجاته بالفعل وليس بالتصور أو الوهم. ويستدعي منه ذلك أن يتعلم التمييز بين صور الأشياء وإدراكها الفعلي. وما شروع الطفل بوضع مخططات ذهنية ومحاولة تطبيقها بهدف اختبار الواقع إلا الخطوة الأولى في تكون الأنا. ومن زاوية النظر هذه يرى فرويد أن «الأنا» هو الجهاز الإداري المنفذ للشخصية. وهو يتحكم بـ«الهو» وينظمه من جهة، ويدير شؤون «الأنا الأعلى» ويضبطها من جهة ثانية، باعتباره جزءاً من «الهو» لصيقاً به ومنفتحاً على العالم الخارجي. وحين يحسن «الأنا» القيام بوظائفه ويتمكن من التوفيق بين حاجات «الهو» ومتطلبات «الأنا الأعلى»، فإنه يضمن للشخصية انسجامها وتوازنها. ولكنه حين يميل إلى أحد الطرفين ويقع تحت تأثيره، فإنه يسبب في اختلال توازن الشخصية واضطرابها.

ويصور فرويد علاقة «الأنا الأعلى» على أنها علاقة تسلط وتدمير. «فالأنا الأعلى» لا يسعى إلى إخضاع «الأنا» لسلطته فقط، بل وإلى نفيه والقضاء عليه. ويتجلى هذا المسعى في الإحساس بالذنب الذي يعاني منه مرضى العصاب، والذي ينشأ تحت ضغط «الأنا الأعلى». ومن هنا يفسر فرويد ظاهرة القلق. فيتحدث عن مصدرين اثنين للقلق الذي يصيب «الأنا»: مصدر داخلي، وآخر خارجي، ويميز

ثلاثة أنواع من القلق: القلق الواقعي، أو الموضوعي، ومصدره العالم الخارجي، والقلق الأخلاقي، ومصدره «الأنا الأعلى»، والقلق العصابي ومصدره «الهو».

ويحدد فرويد مهمة التحليل النفسي في تخليص «الأنا» من مختلف أشكال الضغوط، والعمل على زيادة قوته إلى المستوى الذي يجعله قادراً على أداء وظيفته بصورة متوازنة.

ولكي يتحرر «الأنا» من التوتر الناجم عن ضغوط «الهو و»الأنا الأعلى» ومتطلباتهما التي غالباً ما تكون متناقضة، يلجأ الفرد إلى اتباع أساليب محددة يطلق عليها فرويد «آليات الدفاع»، وهي: الكبت، والإسقاط، والتثبيت، والنكوص، والتصعيد(التسامي). ويقصد فرويد بالكبت تنحية المشاعر والأفكار من ساحة الوعي إلى ساحة اللاوعي تنحية نشطة. ولدى انتقالها إلى اللاوعي.

فإنها تستمر في تأثيرها، فتحفز الفرد على الإتيان بسلوكيات معينة، ومع أن الشخص لا يعيها، إلا أنه يحس بثقلها وضغطها، ويعتوره بسببها الإحساس بالقلق.

وبالإسقاط يشير فرويد إلى تحويل القلق العصابي أو القلق الأخلاقي إلى قلق موضوعي بغية التخفيف منه وتسهيل مواجهته.

والتثبيت يعني، عنده، توقف النمو النفسي عند مستوى معين من مستوياته المبكرة أو عند مرحلة من مراحله الأولى.

ويحدد النكوص بأنه الانحدار أو الرجوع إلى الدرجات الدنيا من السلوك والتفكير.

أما التصعيد فهو انتقال الطاقة الجنسية المحرمة إلى نشاط مقبول من جانب الفرد والمجتمع. ويعتبر فرويد الإبداع أرقى أشكال التصعيد وأكثرها سمواً، يقول فرويد:»ونستطيع أن نرى بسهولة أن الأنا هو ذلك القسم من الهو الذي تعدل بنتيجة تأثير العالم الخارجي فيه تأثيراً مباشراً بواسطة جهاز الإدراك الحسي. الشعور. وفضلاً عن ذلك فإن الأنا يقوم بنقل تأثير العالم الخارجي إلى الهو، وما فيه من نزعات،

ويحاول أن يضع مبدأ الواقع محل مبدأ اللذة، الذي يسيطر على الهو. ويلعب الإدراك الحسي في الأنا نفس الدور الذي تلعبه الغريزة في الهو. ويمثل الأنا ما نسميه الحكمة وسلامة العقل، على خلاف الهو الذي يحوي الانفعالات (فرويد ١٩٨٥ ، ٤٢ ،٤٣).

ويتجلى «مبدأ الواقع» في أن يحتمل المرء التوتر وينتظر تفريغ الطاقة حتى يتم إحضار الموضوع الذي يلبي الحاجة، ويتضح من خلال ذلك أن هذا المبدأ لا يلغي اللذة التي ينشدها الهو، بل إنه يسعى إليها بشكل واقعي ومناسب.

أما «الأنا الأعلى» فإنه يقوم على القيم الأخلاقية والمعايير الاجتماعية. ولذا فهو يمثل الجانب المثالي في نظام الشخصية، الذي يتولى مراقبة كيفية تفريغ الطاقة النفسية بتعليق «مبدأ الواقع» و«مبدأ اللذة». ويتشكل «الأنا الأعلى» كاستجابة للممكنات والممنوعات التي تتضمنها توجيهات الوالدين وقرارات وأحكام المؤسسات الاجتماعية المختلفة. وبتقمص الطفل للقيم الأخلاقية السائدة في المجتمع يتوجه بأفعاله نحو مراعاة ما ينبغي أن يكون ويعرض عما هو كائن بالفعل. ويعني هذا أن «الأنا الأعلى» يعمل لبلوغ الكمال. وفي مسعاه يقوم بكف اندفاعات «الهو» ذات الطابع الجنسي أو العدواني على وجه الخصوص من ناحية، وبإقناع الأنا بتجاوز الموضوعات الواقعية وإحلال المثل السامية مكانها من الناحية الثانية. وهكذا فـ«الأنا الأعلى» يشبه «الهو» في عدم خضوعه لأحكام العقل وقواعد المنطق، و«الأنا» في محاولته السيطرة على الغرائز وتقنين عملية إشباعها. ولكنه، بالمقابل، يختلف عن «الأنا» في أن محاولته لا تقتصر على تعليق الإشباع وتأجيله، وإنما يعمل على الحيلولة دون ذلك إلى إشعار تحدده قيم المجتمع.

ويُبرز هذا النموذج الجديد ذو الأبعاد الثلاثة تنوع الدوافع لدى الإنسان. «فالهو» يمثل الدافع البيولوجي، و «الأنا» يمثل الدافع النفسي الفردي (الذاتي)، و«الأنا الأعلى» يمثل الدافع الاجتماعي. ولكن هذه الدوافع تتخذ عند فرويد أشكالاً جامدة. فالدافع البيولوجي يقتصرعلى طاقة الليبيدو، والدافع الاجتماعي ينحصرفي الاتجاه النفسي للطفل. وبدا «الأنا المسكين» ـ على حد تعبير فرويد نفسه ـ ينوء بكلكل مهمة

التوفيق بين مطالب «الهو» وسلطات «الأنا الأعلى»، ويواجه الأخطار المحدقة به «من العالم الخارجي،ومن ليبيدو «الهو»، ومن قسوة «الأنا الأعلى»(فرويد، ١٩٨٥، ٨٩)، الأمر الذي اعتبره فرويد سبباً في الإصابة بالأمراض النفسية.

وفضلاً عن ذلك فإن «الهو» كعنصر أولي وبدائي، يتمتع بقوة عمياء، هو الأرضية التي ينبثق عنها «الأنا» و«الأنا الأعلى» « مادام الأنا الأعلى» هو أول تقمص يبدأ به تكون «الأنا» بعد أن «يحل محل الشحنات النفسية التي كانت تصدر عن الهو والتي قد توقفت بعد ذلك»(فرويد، ١٩٨٥، ٧٨).

واشتمل النموذج الجديد أيضاً، زيادة على أقسام الشخصية، القوى المحركة للسلوك، فبعد أن شاهد فرويد ويلات الحرب العالمية الأولى، ووقف على ما تركته من موت ودمار وخراب، وما سببته من تشوهات واضطرابات في الأجسام والنفوس، أضاف إلى الايروس أوالغرائز الجنسية، غرائز أخرى، هي غرائز الموت. كتب فرويد يقول: «وقد اقتضت بعض الاعتبارات النظرية التي أيدها علم البيولوجيا أن نفترض غريزة الموت».(فرويد ١٩٨٥، ٦٧)، ويزعم أن تكون هذه الغريزة يرجع إلى تاريخ موغل في القدم، ففي أحد العصور الجيولوجية عرفت مصادر الكون مستوى من الاتحاد فيما بينها، تحولت معه إلى كائنات عضوية. ويتصور فرويد أن هذه الكائنات لم تعمر طويلاً، وعادت إلى حالتها السابقة، أي إلى الحالة غير العضوية. ومع بداية نشوء الحياة على الأرض، ورثت الكائنات الحية عن تلك العناصرنزعتها إلى الفناء. وهكذا فإن هذه الغريزة توجد في جميع الأحياء على الأرض. وبوجودها ينزع كل حي للعودة إلى الحالة التي كان عليها قبل ولادته، أي إلى حالة اللاعضوية.

وتتجلى غريزة الموت في النزعة العدوانية الموجهة نحو تدمير الذات أو تدمير الغير. وفي الوقت الذي يفصح فيه فرويد عن شكّه في تضاد الغريزة الجنسية وغريزة الموت، فإنه يترك الباب مفتوحاً أمام النشاط التحليلي الأكلينيكي للتدليل على اتحادهما. ويفترض بصورة أولية أن وجود إحداهما يقضي بحياد الأخرى أو بحلولها محلها.

وفي هذا المعنى يقول: «غير أن التمييز بين مجموعتي الغرائز لا يبدو مؤكداً تأكيداً كافياً، ومن المحتمل أن تأتي حقائق التحليل الأكلينيكي مخالفة لذلك»(فرويد، ١٩٨٥، ٧٠). ولكنه يستدرك ويشير إلى خبرته الشخصية قائلاً:»وتبين الملاحظة الأكلينيكية الآن أن الحب يكون دائماً مصحوباً بالكره(التناقض الوجداني) بشكل لم يكن متوقعاً، وأن الكره غالباً ما يكون مقدمة للحب في العلاقات الإنسانية... بل إنها تبين أيضاً أنه كثيراً ما يتحول الكره إلى حب، والحب الى كره. فإذا كان هذا التحول شيئاً أكثر من مجرد التعاقب الزمني، لأصبح من الواضح إذ أنه لا يوجد دليل لذلك التمييز الأساسي بين غرائز الحب وغرائز الموت، وهو التمييز الذي يقتضي وجود عمليات فيزيولوجية متعارضة»(فرويد، ١٩٨٥، ٧٠).

وفي مجرى الحديث عن الغرائز يعترف فرويد صراحة بصعوبة هذا الموضوع وغموض العديد من جوانبه. ولهذا فإنه يقيم آراءه فيه على الفرضيات وليس على معطيات التجربة الميدانية. لأن معرفته في هذا المجال تبقى عامة، وتقتصر على مجرد الإشارة إلى أن غرائز الموت تنجز وظيفتها بصورة حتمية وأكيدة. أما كيف تقوم بذلك؟، وكيف تستمر في عملها عبر علاقاتها المتقلبة بالغرائز الجنسية؟ فيظل أمراً مجهولاً، ومع ذلك فإن فرويد، لم يتردد في الحكم على أهمية تلك الغرائز في حياة الأفراد والجماعات البشرية واعتبارها السبب في اندلاع الحروب والعدوان والتدمير.

لقد ضاعفت فرضية وجود غرائز الموت لدى البشر من نزعة فرويد التشاؤمية ونظرته السوداوية إلى مستقبل الإنسانية. وبوسعنا أن نلاحظ ذلك

بوضوح في أعماله اللاحقة، خاصة في كتابيه «مستقبل وهم»(١٩٢٧)، و»كدر في الحضارة»(١٩٣٠)، وفي رسائله إلى أصدقائه. وهذا ما يبرزه مؤرخو علم النفس والتحليل النفسي. يقول كلفن هال: «لقد كان(فرويد - ب.ع -) يرى أن القوى غير المتعقلة في طبيعة الإنسان تبلغ من الشدة حداً يجعل للقوى المتعقلة فرصة ضئيلة للتغلب عليها. إن قلة محدودة من الناس هم الذين يستطيعون أن يحيوا حياة العقل. ولكن أغلب الناس يعيشون بالخرافات والخداع أفضل من أن يعيشوا في الحقيقة. لقد

رأى فرويد عدداً عديداً من المرضى يقاتلون قتالاً عنيفاً للاحتفاظ بأوهامهم لكي لا يثقوا ثقة أعظم بقوة المنطق والعقل. إن الناس يقاومون معرفة الحقيقة عن أنفسهم. هذه النظرة التشاؤمية نجدها مبسوطة مصقولة في كتابه «مستقبل وهم». وإن كانت كامنة بين السطور في كثير من كتبه»(هال، ١٩٧٠، ٢٣).

إن القول بغرائز الموت ووظيفتها يعني ببساطة أن سلوك مجرمي الحرب وأفعال وتصرفات القادة والزعماء التي تؤدي إلى الاقتتال والتدمير أمر مسوغ طالما أن كل ذلك موجود لدى الإنسان على صورة غريزة أو طاقة فطرية موروثة. كما يستبعد أية محاولة لتجنيب الإنسان مخاطر الحرب ونتائجها المدمرة. ويعني ذلك أيضاً استحالة البحث في المجتمع والاقتصاد والسياسة والأخلاق عن أسباب الحروب والجرائم والقتل والاعتداء والانتحار مادام ذلك تفريغاً للشحنات الغريزية الموجودة لدى الفرد. و قد عبر فرويد عن ذلك في رسالة بعث بها إلى أنشتين عام ١٩٣١ أكد فيها فطرية النزعة العدوانية والتدميرية عند بني البشر، وعجزنا حيال جموحها وطغيانها.

ولعل من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن النموذج الجديد الذي يعكس تصور فرويد المعدل للجهاز النفسي احتفظ بمكانة اللاوعي في شخصية الإنسان ودوره الريادي في تكون خصائصها وتطورها. وظل مؤسس التحليل النفسي وفياً لهذا المفهوم حتى آخر أيامه. فكتابه «الموجز في التحليل النفسي»، الذي بدأ بتأليفه في لندن(*) عام ١٩٣٨ ولم يكمله بسبب وفاته عام ١٩٣٩، يعتبر محاولة لصياغة نظريته في الشخصية ومركباتها وديناميا تها والأهمية المتميزة التي يكتسبها اللاوعي على صعيد تشكيل ملامحها وتبلورها.

ومن باب الإنصاف القول بأن لفرويد فضلاً في وضع اللاوعي داخل دائرة الضوء والوقوف عنده والتمعن فيه من أجل معرفة حدوده ومحتواه ونشاطاته ودوره في حياة الإنسان من غير أن ننسى مبالغته التي جعلت من اللاوعي ينهض بدور المحرك الأساسي لنشاط الشخصية وديناميتها. والحقيقة الموضوعية تفرض علينا أن نقول أيضاً بأن اللاوعي ليس من مبتكرات فرويد، وإنما هو أحد المفاهيم التي شغلت

الكثير من الفلاسفة السابقين وأدلوا بآرائهم حولها. فالبحث في عمق الإنسان وباطنه لم يتوقف قط منذ أن ظهرت محبة الحكمة لدى الناس. وكان توزع أفعال البشر بين الخير والشر تدفع المفكرين إلى التساؤل عن أسباب ذلك. وقد اكتست إجاباتهم قديماً طابعاً مثالياً تمثل، على سبيل المثال، في الطبيعة الإنسانية ذات القطبية الثنائية. فإما أن تكون هذه الطبيعة خيرة، أو شريرة، أو أنها، في حالات أخرى، مزيج من الخير والشر. كما تمثل في تقسيم النفس إلى قوى عاقلة خاضعة، وأخرى شهوية مسيطرة. ويؤلف أصحاب الرأي الأخير تياراً متماوج الألوان، يبدأ بأفلاطون ويستمر حتى الآن، ماراً بديكارت وسبينوزا وكانت وهيوم وهيغل وفرويد نفسه وغيرهم.

ويعتبر ليبنتز أول من استخدم مفهوم اللاوعي عندما ميز عبر تأملاته في العقل البشري بين مستويين من العمليات العقلية: مستوى الأفعال الواعية، ومستوى الأفعال اللاواعية. ومنذئذ أصبح اللاوعي مفهوماً متداولاً بين المفكرين الذين تناولوا مسألة البنية النفسية.

ومن جانب آخر، أثارت فكرة ليبنتز مناقشات كثيرة وطويلة، تركزت حول إمكانية الإنسان على معرفة المستوى اللا وعي من الأفعال العقلية. فقد وقف الفيلسوف كانت من هذه الفرضية موقفاً إيجابياً. واعتقد أن بمقدور الإنسان معرفة مادعاه ليبنتز «الإدراكات الصغيرة» أو ما أسماه هو بـ«التصورات الغامضة» معرفة غير مباشرة.

واحتل موضوع اللاوعي مكاناً هاماً في فلسفة هيغل. فقد انطلق هذا الفيلسوف من وجود مخبأ «لاواع» ومبهم في أغوار النفس الإنسانية. ووصف هذا المخبأ بأنه «عالم بلا حدود من الصور والتصورات الكثيرة التي ليس لها وجود في الوعي»(هيغل، ١٩٧٢، ج٣، ٢٥٦، ٢٥٧). وتحدث عن انتقال هذه الصور والتصورات وتحولها إلى وعي لتنضم إلى الخبرة الحياتية المباشرة للفرد.

أما آرثر شوبنهاور فقد ذهب مذهباً آخر في معالجة هذا الموضوع. حيث وجد في كتابه «العالم كإرادة وتصور»(١٨١٩) أن الإرادة هي أصل الأشياء وأساس كل ماهو موجود. وهي، بالنسبة له، قوة كونية عمياء، لا واعية، لا تخضع لأية قواعد منطقية

أو أحكام عقلية أو أخلاقية. بينما اعتبر التصور مظهراً أولياً من مظاهر الوعي. وعن طريقه يتعرف الإنسان على الوقائع الوجودية.

ويبدو واضحاً ذاك البعد العالمي الذي أعطاه شوبنهاور للإرادة وتلك القدرة الخارقة التي منحها إياها باعتبارها علة الوجود. أما اللاوعي كمركب نفسي ذاتي فإنه يؤلف، في تصوره، حالة صغيرة ودقيقة من تجليات الإرادة الكونية اللاواعية. فهو ينشأ عنها أثناء التطور الإنساني.

وبالاعتماد على هذه المقدمة حدد شوبنهاور علاقة الوعي باللاوعي على النحو التالي: «إن الوعي هو الحالة البدائية والطبيعية للأشياء كلها. وبذلك يكون اللاوعي هو التربة التي منها تنمو لدى بعض أنواع الكائنات الحية زهرة الوعي السامية»(ليبين، ١٩٨١، ٢٧).

وبذا يكون شوبنهاور قد مهد الطريق أمام ظهور تفسيرات ذات طابع لاعقلاني، كالتي قدمها فريدريك نيتشه(١٨٤٤-١٩٠٠م) وإدوارد فون هارتمان. فقد طرح نيتشه مسألة الإرادة والنزوع إلى السلطة، وحدد طبيعتها كقوة لا واعية مسؤولة عن كل ما يفعله الناس. وذهب هارتمان إلى القول بـ»ميتافيزياء اللاوعي». وعرض نظريته هذه في كتابه «فلسفة اللاوعي»(١٨٦٩) وقد لاحظ ليبين أن هذه النظرية تتضمن جميع العناصر التي دخلت، فيما بعد، في نظرية فرويد :»الاعتراف بأهمية اللاشعور في النشاط الحيوي لكل إنسان، والوقوف ضد قصر النفس على الأفعال الشعورية وحدها، وتأكيد دور اللاشعور في الإبداع عند الفرد، ومحاولة تفسير تلك الروابط المتبادلة بين الشعور واللاشعور التي تجري في العالم الداخلي للإنسان، رغم أنه لا يعيها أحياناً»(ليبين، ١٩٨١، ٢٧).

وإلى جانب الفلاسفة، كان علماء الطبيعة، بدورهم، يؤكدون وجود عمليات نفسية لا واعية. فقد قال فخنر بـ»الإحساس اللاواعي»، وهيلمهولتز بـ»الاستنتاج اللاواعي». وقد أشار كاربانتر، فيما بعد، إلى النشاط اللاواعي الذي يقوم به الدماغ البشري.

إن سنة التطور الفكري والعلمي تحتم علينا أن ننظر إلى الآراء المذكورة وما شابهها بوصفها الأرضية التي ظهرت عليها نظرية فرويد في اللاوعي.

وفي نفس الاتجاه يمكننا أن نمضي لتلمس الآثار التي خلفتها تعاليم هؤلاء الفلاسفة وغيرهم في موقف مؤسس التحليل النفسي من الدوافع الطبيعية وماتلعبه الغرائز الجنسية وغرائز الموت في نظره من دور في حياة الإنسان. ولعل هذه المهمة ليست بالأمر الصعب، إذا عرفنا أن تلك الآثار تتجسد في اقتباسات فرويد واستشهاداته والمراجع والمصادر التي يشير إليها في أعماله.

ولعلنا نتذكر الانطباع المتميز الذي سجله فرويد حول شخصية شاركو العلمية، وأنه لم يستطع مقاومة تأثيره أو إخفاء قوة جاذبية أفكاره وفضلها في توجيه انتباهه نحو الأسباب البعيدة لمرض الهستيريا. فهاهو يعيد على مسامعنا ما التقطه على لسان شاركو حينما كان هذا الأخير يصف ذات مرة حالة امرأة شابة مصابة باضطرابات عصابية: «في مثل تلك الحالات يكون الجنس دائماً هو أكثر الأشياء أهمية، دائماً، دائماً، دائماً»(فرويد، ١٩٢٣، ٢٦).

لم يكن شاركو - كما عرفنا في حينه - من ذوي النزعة الغريزية في تفسير الحالات المرضية التي كان يشرف على معالجتها. وأغلب الظن، أنه اعتمد في حكمه هذا على معطيات محددة ذات صلة مباشرة بأعراض مرضية خاصة ومتميزة. والكلام هنا يدور حول القصور الجنسي الذي يعاني منه زوج المريضة. ولكن عبارة شاركو التي همس بها إلى أحد زملائه استوقفت فرويد الذي كان يصغي إلى حديث الرجلين وهو على مقربة منهما. ووجدت لديه صدى كان يتسع ويتعمق بسرعة كلما ألحت عليه طموحاته ورغباته. وراح يجول ببصره وفكره في التراث الفلسفي والأنتروبولوجي والاجتماعي بحثاً عما يناسب منطلقه.

إننا نميل إلى التسليم بأن الإنشاءات الفرويدية لم تقم في فراغ، وأن التراث الإنساني هو من الغنى والتعدد والشمولية والتنوع، بحيث يمكن النظر إليه كبناء متدرج ومتكامل، ولو أنه، بطبيعة الحال، غير كامل، وينطبق هذا الكلام أكثر على القضايا الإنسانية بعامة والنفس أو الوعي بخاصة. فدوافع الأفعال الإنسانية هي إحدى المشكلات التي حظيت باهتمام المفكرين والباحثين منذ القديم. وقد ظهرت

بشـأنها آراء عديـدة ومختلفـة يصعـب حصرهـا. ومـن بـين تلـك الآراء مـا يعتبـر سـلوك الفـرد نتيجـة لوجـود الرغبـة. ولكـن مفهـوم الرغبـة بحـد ذاتـه يختلـف في قوتـه ودوره مـن مفكـر إلـى آخـر. فقـد قصـر بعضهـم دوره علـى جانـب مـن السـلوك (أرسـطو)، ووسـعه آخـرون ليشـمل مسـؤولية الحفـاظ علـى الجنـس البشـري (سـبينوزا). بينمـا تحـدّث فريـق ثالث(أمبدوقل، مثـلاً)، عـن قوتـين متعارضتـين تحـركان أفعالنـا وتصرفاتنـا. وهاتـان القوتـان همـا الحـب (أفروديـت) والكراهيـة (آريـس). ولا يخفـى التشـابه القائـم بـين ماجـاء بـه فرويـد وأمبدوقـل. وهـو مـا اعتـرف بـه فرويـد نفسـه وأعطـى رأيـه مـن خلالـه بأمبدوقـل، واعتبـره «أعظـم وأبـرز الشـخصيات في الحضـارة اليونانية»(ليبـين، ١٩٨١، ٤٥). كمـا اعتـرف بوجـود تشـابه بـين رأيـه ورأي شـوبنهاور حـول العلاقـة بـين غرائـز حـب البقـاء وغرائـز المـوت. فعندمـا يؤكـد مؤسـس التحليـل النفسـي أن «المـوت هـو الهـدف النهائـي للحيـاة»، وأن جميـع الغرائـز والرغبـات التـي تنشـأ علـى أساسـها وتعبـر عنهـا تتوجـه بالكائـن الحـي عبـر نشـاطها وصراعهـا إلـى ذلـك الهـدف، فإنـه يعيـد ماقالـه شـوبنهاور مـن أن «المـوت هـو الهـدف الحقيقـي للحياة»(فرويـد، ١٩٨٥، ٦٧).

وبالإضافـة إلـى كل مـا سـبق فـإن بحـث فرويـد في التـراث الفلسـفي تعـدى المبـادئ والأفـكار العامـة ليتنـاول تفصيـلات إنشـاءاته النظريـة. ونقصـد بذلـك الإسـقاطات الميثولوجيـة التـي لجـأ إليهـا بعـض الفلاسـفة قبـل فرويـد. فقـد اتخـذ هيغـل، مثـلاً، مـن أسـطورة أوديـب وسـيلة لإيضـاح موقفـه مـن الأفعـال التـي تجـري في الجانـب الغامـض مـن النفـس الإنسـانية والتـي لا يعيهـا الفـرد، حيـث يقـول: «.... إنـه لا يبـين للابـن أن الشـخص الـذي أهانـه هـو أبـوه، وأن الملكـة التـي يتزوجهـا هـي أمـه»(هيغـل، ١٩٧٢، ج٤، ٢٥١). وفعـل أفلاطـون، مـن قبـل، الشـيء ذاتـه ليدلـل علـى أولويـة النشـاط اللاعقلانـي الـذي يقـوم بـه الفـرد مـن أجـل إرواء غرائـزه الطبيعيـة. فقـد تدفعـه غريزتـه الجنسـية إلـى حـد محاولـة معاشـرة أمـه دونمـا تـردد أو تلكؤ(أفلاطـون، ١٩٧١، ج١، ٣٩١).

ولئـن كان هـدف أفلاطـون وهيغـل مـن الاستشـهاد بأسـطورة أوديـب هـو إبـراز سـيطرة البدايـة البهيميـة في النفـس الإنسـانية ولا عقلانيـة الغرائـز وطغيانهـا علـى مـا عداهـا مـن

الجوانب النفسية الأخرى (بالنسبة للأول)، أو التأكيد على ضعف قدرة الإنسان على وعي جميع أفعاله ودوافعه (بالنسبة للثاني)، فإن فرويد اتخذ من هذه الأسطورة قانوناً عاماً يفسر به المظاهر الثقافية والاجتماعية والدينية والأخلاقية والنفسية. وعلى الرغم من أن بالإمكان تحميل أسطورة أوديب معاني ومدلولات عديدة بتعدد الزوايا التي ينظر إليها من خلالها، إلا أن فرويد لم يشأ أن يجد فيها أي شيء آخر سوى عبودية بني البشر لشهواتهم ورغباتهم الجنسية.

لقد تصدت أعمال فرويد للإجابة على أكثر محاور التساؤل المطروح على علم النفس أهمية. وهذا ما يتجسد في تناوله لبنية النفس وعوامل نشأتها ونموها والقوى المحركة لها(الدافعية). ولكنه بنى معالجته لهذا الموضوع على مسلمات وفرضيات من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، الوصول إلى معطيات تجريبية أو ميدانية بشأن صحتها. فقد تصور الدافعية على شكل طاقة تنشط داخل نظام عضوي مغلق ومستقل. وأن هذه الطاقة ذات الطبيعة الجنسية تحدد في سنوات الطفولة الأولى نمط الشخصية ومصيرها.

ولعله من الحقائق العلمية والتاريخية القول بأن هذا التصور كان نقطة ضعف بارزة في مذهب التحليل النفسي الفرويدي استهدفتها غالبية الحملات الانتقادية التي وجهت إليه. كما كان سبباً مركزياً في تبرم واحتجاج أبرز أعضاء الرابطة الدولية للمحللين النفسيين.

ومما زاد من حدة مواقف هؤلاء، هو إصرار فرويد على ضرورة التسليم بالطاقة الليبيدوية كمبدأ عام وشامل يسري على الحالات المرضية والسوية في مختلف البيئات الثقافية، القديمة منها والحديثة. فقرروا الانفصال عنه وتكوين تيارات تعكس اتجاهاتهم وآراءهم في مسائل علم النفس والتحليل النفسي.

●●●